

الباب الثلاثون

الأخلاق والآداب في العالم المسيحي

٧٠٠ - ١٣٠٠

الفصل الأول

القانون الأخلاقي المسيحي

كان لابد للإنسان في مرحلة سكنى الغاب أو في مرحلة الصيد أن يكون شراً - حريصاً في بحثه عن الطعام ، نهماً في ابتلاعه - لأنه إذا جاءه الطعام مرة لا يدري متى يأتيه مرة أخرى . وكان لابد له أن يكون شديد الحساسية الشهوانية ، وكثيراً ما يطلق لهذه الشهوات العنان ، فلا يتقيد بزواج لأن ارتفاع نسبة الوفيات تحتم ارتفاع نسبة المواليد ، فكل امرأة يجب أن تصير أمّاً كلما كان ذلك مستطاعاً ، ولا بد أن تكون وظيفة الذكر حامية على الدوام . ولا بد له أن يكون مشاكساً دائماً الاستعداد للقتال من أجل طعامه ورفيقته .

لقد كانت الرذائل في وقت ما فضائل لا غنى عنها للمحافظة على البقاء ، فلما وجد الإنسان أن أحسن سبيل إلى البقاء - بقاء الفرد وبقاء النوع - هي سبيل التنظيم الاجتماعي ، وسع نطاق عصبية الصيد ، فجعلها هيئة من النظام الاجتماعي لابد فيها من كبح جماح الغرائز التي كانت عظيمة النفع في مرحلة الصيد عند كل خطوة يخطوها الإنسان ، حتى يستطيع بذلك قيام المجتمع . فليست كل حضارة إلا توازناً وتجاذباً بين غرائز الإنسان ساكن الغابة وقيود

القانون الأخلاقى ؛ فإذا وجدت الغرائز دون القانون الأخلاقى قضى على الحضارة ، وإذا وجدت القيود دون الغرائز قضى على الحياة ، فالمشكلة التى تواجهها الأخلاق هى أن تنظم القيود بحيث تحمى الحضارة دون أن توهن الحياة .

وكانت بعض الغرائز ، وأكثر ما تكون غرائز اجتماعية ، هى صاحبة السبق فى تهدئة العنف البشرى ، والاختلاط الجنىسى الطابق ، والشره ؛ وكانت هى أساساً حيويّاً للحضارة . فقد خلّقت الحب الأبوى ، فى الحيوان والإنسان ، نظام الأسرة الاجتماعى الفطرى ، وما فيها من تأديب تعليمى ، ومساعدة متبادلة ؛ ونقلت السلطة الأبوية ، وهى مزيج من ألم الحب ومتعة الاستبداد ، قانون السلوك الاجتماعى المنقذ للحياة إلى الطفل صاحب النزعة الفردية . وأحاطت القوة المنظمة التى يمارسها الزعيم ، أو الشريف ، أم تمارسها المدينة أو الدولة ، أحاطت هذه القوة وداجت إلى حد كبير قوة الأفراد غير المنظمة . وأخضع حب الاستحسان النفس البشرية إلى إرادة الجماعة ؛ وهدت العادة والمحاكاة من حين إلى حين المراهق والمراهقة إلى السبل التى ارتضاها الناس بعد تجاربهم وأخطائهم . وأرهب القانون الغرائز بشبح العقاب ، وذلل الضمير الشاب بطائفة لا حصر لها من الموانع والمحرمات .

واعتقدت الكنيسة أن هذه المنابع الطبيعية أو الزمنية للأخلاق لا تكفى وحدها للسيطرة على الدوافع التى تحفظ الحياة فى الغابة ، بل تقضى على النظام فى المجتمع ، وقالت إن هذه الدوافع أقوى من أن تكبحها أية سلطة لا تكون لها فى كل مكان وفى وقت واحد قوة مانعة رهيبية . ولهذا فإن القانون الأخلاقى شديد الوقع على الجسم لا بد له أن يكون مخنوماً بنخام قوة غير بشرية إذا أريد أن يطيعه الناس ، ولا بد له أن يكون مؤيداً بقوة إلهية وذات مكانة فوق المكانة الآدمية تحرمها النفس فى غياب كل سلطة ، وفى أثناء لحظات الحياة وخباياها الخفية . إن السلطة الأبوية نفسها ، وهى عماد كل نظام أخلاقى واجتماعى ، لتنهال فى النزاع

القائم ضد الغرائز البدائية إلا إذا كان لها دعامة من العقيدة الدينية تُغرس في قلب الطفل . فإذا أريد خدمة المجتمع ونجاته ، فلا بد له من دين يقاوم الغرائز الملحة بأوامر ليست من عند البشر ولا تقبل قطنزاعاً ، بل هي أوامر من عند الله نفسه ، محددة واضحة لا تقبل جدلاً . وإذا كان الإنسان شديد الإثم والشراسة فإن هذه الوصايا الإلهية يجب ألا يؤيدها الثناء والشرف اللذان يمنحهما الناس من يطيعونها ، أو الخزي والعقاب اللذان يلحقان بمن يخرج عليها ، بل يجب أن يؤيدها ، فضلاً عن هذا ، الأمل في نعيم السماء تناله الفضيلة التي لا تلقى جزاءها في هذه الدنيا ، وخوف الجحيم التي يتردى فيها الآثمون الذين لا يلقون على ظهر الأرض عقاباً . إن هذه الوصايا يجب ألا تأتي من عند موسى بل من عند الله .

وكانت عقيدة الخطيئة الأولى في اللاهوت المسيحي هي التي مثلت بها النظرية القائلة إن الغرائز البدائية تجعل الإنسان غير صالح للحضارة . وكانت هذه النظرية ، كما كانت فكرة « كارما » في الديانة الهندية محاولة قصد بها ما يحل بالناس من آلام هم في الظاهر غير خليقين بها ؛ وهذا التفسير هو أن « الصالحين يقاسون الآلام في هذه الحياة لأن أسلافهم ارتكبوا الإثم ؛ وتقول النظرية المسيحية إن الجنس البشري على بكرة أبيه قد لوثته خطيئة آدم وحواء ؛ ويقول جراتيان Gratian في كتابه Decretum « القرار » (حوالى عام ١١٥٠) الذي اتخذته الكنيسة بصفة غير رسمية جزءاً من تعاليمها : « كل آدمي وُلد نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة يولد ملوثاً بالخطيئة الأولى ، معرضاً للعقوب والموت ، ولهذا فهو طفل مغضوب عليه » (١) لا ينجيه من الخبث واللعنة إلا رحمة الله وموت المسيح الذي كفر عن آثامه (ولا يتقذ الإنسان من العنف ، والشهوة ، والشره ، وينجيه هو والمجتمع الذي يعيش فيه من الهلاك إلا المثل الذي ضربه المسيح الشهيد في الوداعة ودماثة الخلق) . وبعثت الدعوة إلى هذه العقيدة ، مضافة إلى الكوارث الطبيعية التي لم تستطع العقول فهمها إلا على أنها عقاب عن الخطايا ، بعثت هذه

الدعوة في الكثرين من الناس في العصور الوسطى شعوراً بأنهم مفطورون على الدنس ، والانحطاط ، والإجرام ، وهو الشعور الذي غلب على كثير من أديهم قبل عام ١٢٠٠ . ثم أخذ ذلك الشعور بالخطيئة والخوف من الجحيم يتناقص حتى جاء عهد الإصلاح الديني ، وظهر بعدئذ بقوة ورهبة جديدتين بين المتطهرين المتزمطين .

وتحدث جريجورى الأول ومن جاء بعده من علماء الدين عن سبع خطايا - الكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ، والشره ، والكسل ، تقابلها في رأيهم السبع الفضائل الرئيسية : أربع منها « فطرية » أو وثنية امتدحها فيثاغورس وأفلاطون - الحكمة ، والشجاعة ، والعدالة ، والاعتدال ؛ وثلاث فضائل « دينية » - الإيمان ، والأمل ، والإحسان . ولكن المسيحية لم تؤمن قط بالفضائل الوثنية وإن ارتضتها ؛ وكانت تفضل الإيمان عن العلم ، والصبر عن الشجاعة ، والحب والرحمة عن العدالة ، والتعفف والطهر عن الاعتدال . ورفعت من شأن الانتضاع ، ووصفت الكبرياء (وهو من أبرز صفات رجل أرسطو المثالي) بأنه أشنع الذنوب الشنيعة . وكانت المسيحية تتحدث أحياناً عن حقوق الإنسان ، ولكن أكثر ما كانت تؤكده هو واجبات الإنسان - واجباته نحو نفسه ، ونحو بني جنسه ، ونحو كنيسته وربه . ولم تكن الكنيسة تدعو إلى الاقتداء بالمسيح الرقيق ، الوداع ، الرحيم ، لأنها كانت تخشى أن تجعل الرجال مخنثين . والحق أن رجال المسيحية اللاتينية في العصور الوسطى كانوا أكثر رجولة من ورثتهم وخلفائهم في هذه الأيام ، لأنهم كانوا يواجهون من الصعاب أكثر مما يواجهه هؤلاء . ذلك أن علماء الدين والفلاسفة ، كالرجال والبول ، يتصفون بما يتصفون به ، لأنهم في زمانهم ومكانهم لم يكن لهم مما كانوا عليه بد .

الفصل الثانى

الآداب قبل الزواج

تُرى إلى أى حد كانت آداب الناس فى العصور الوسطى تمثل أو تحقق المبادئ والنظريات الأخلاقية فى تلك العصور ؟ فلننظر أولاً إلى الصورة التى كانت عليها تلك العصور دون أن يكون لدينا رأى سابق نريد إثباته .

لقد كانت أولى الحوادث التى تمت بصلة إلى الأخلاق فى الحياة المسيحية هى التعميد : به كان الطفل يندمج جديداً فى المجتمع وفى الكنيسة ، ويخضع - أو يخضع عنه من يعملونه - إلى قوانينهما . وفى هذه الحفل يتلقى كل طفل « اسماً مسيحياً » - ويكون هذا الاسم فى العادة اسم أحد القديسين المسيحيين . أما الأسماء التى تضاف بعد هذا الاسم فكانت مختلطة الأصول : ويمكن الرجوع بها خلال أجيال متعددة إلى القرابة ، أو المهنة ، أو المكان ، أو إلى شىء من معارف الجسم أو معالم الخلق ، بل يمكن الرجوع بها أحياناً إلى شىء من الطقوس الكنسية : ومن أمثلة هذه الأسماء سسلى ولكنز دوتر Cicely Wilkinsdoughter وجيمس اسمث James Smith ، ومرجريت فرى ومن Margaret Ferrywoman وماثيو باريس Matthew Paris ، وأجنيس ردهد Agnes Redhead ، وجون مريمان John Merriman ، وربرت لتانى Robert Litany ، وربرت بنديسيت Robert Benedicite أو بندكت Benedict .

وكان جريجورى الأكبر ، كما كان روسو ، يبحث الأمهات على أن يرضعن أطفالهن (٣) ؛ وكانت معظم النساء الفقيرات يفعلن هذا ، أما نساء الطبقات العليا

فكانت الكثرة الغالبة منهم لا تفعلنه^(٤) . وكان الأطفال محبوبين ، كما هم محبوبين الآن ؟ ولكنهم كانوا يضربون أكثر مما يضربون في هذه الأيام ، وكانوا كثيرى العدد بالرغم من كثرة من يموتون منهم في سن الطفولة وسن المراهقة . وكان بعضهم يؤدب البعض لاجتماعهم في مكان واحد ، وقد تحضروا بسبب خوفهم من ارتكاب الذنوب . وتعلموا من أقاربهم ورفاقهم في اللعب كثيراً من فنون القطر أو المدينة ، وتقدموا تقدماً سريعاً في معارفهم ونخبهم . وفي ذلك يقول تومس من أهل سيلانو Celano في القرن الثالث عشر : « لا يكاد الأولاد ينطقون حتى يتعلموا الحبث ، وكلما تقدموا في السن زادوا سوءاً على سوء حتى يصبحوا مسيحيين بالاسم لا أكثر »^(٥) . ولكن الذين يكتبون في الأخلاق مؤرخون غير صادقين ؛ فقد كان الأولاد يبلغون سن العمل وهم في الثانية عشرة من عمرهم ويبلغون سن الرشد القانوني في السادسة عشرة .

وكانت مبادئ الأخلاق المسيحية تتبع مع المراهقين سياسة الصمت بإزاء الأمور الجنسية : فقد كان النضج المالى أى القدرة على كفالة الأسرة يجئ بعد النضج الجنسى أى القدرة على الخلف ؛ وكان الاعتقاد السائد أن التربية الجنسية قد تزيد آلام العفة في تلك الفترة من العمر ؛ وكانت الكنيسة تتطلب العفة قبل الزواج لتساعد بذلك على الاحتفاظ بالوفاء بعده وعلى النظام الاجتماعى والصحة العامة . ولكن الشاب في العصور الوسطى كان في أكبر الظن قد ذاق أنواعاً من الصلات الجنسية قبيل بلوغه السادسة عشرة من عمره . فقد عاد اللواط إلى الظهور في أثناء الحروب الصليبية ، وفي أثرتيار الآراء الشرقية^(*) ، وعزلة الرهبان والراهبات^(٦) . وكانت المسيحية قد أفلحت في مهاجمة هذا الداء في العصور القديمة المتأخرة . وقد كتب هنرى رئيس دير كليرفو عن فرنسا في عام

(*) كثيراً ما تظهر هذه العادة اللعينة في الحروب ، وقد وجدت في الغرب والشرق على السواء ، وإذا رجع القارئ إن الفصل الخامس باليونان من هذه السلسلة رأى ما قاله المؤلف عنها عند أولئك القوم . (المترجم)

١١٧٧ يقول : « إن سدوم (*) القديمة قد أخذت تقوم فوق أنقاضها » (٧) وأتهم فليب الجميل رهبان المعبد بانتشار الاواط بينهم . وفي كتب التوبة الدينية التي تصف وسائل التكفير عن الذنوب ذكر لضروب الفحش من بينها البهيمية ، وكانت طائفة كثيرة التنوع عن البهائم موضع صلات جنسية بالآدميين (٨) . وكانت الصلات الجنسية من هذا النوع إذا كشفت عوقب الطرفان المشتركان فيها بالإعدام ؛ وفي سجلات البرلمان الإنجليزي ذكر لطائفة من الكلاب ، والمعز ، والبقر ، والخنازير ، والإوز ، حرقت حية هي ومن ارتكب معها الفحشاء من الآدميين . كذلك كثرت مضاجعة المحارم في تلك الأيام .

ويبدو أن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، وفي خارج نطاق الزواج ، كانت منتشرة انتشارها في أى وقت بين أقدم الأزمنة والقرن الثاني عشر ، ذلك أن غريزة الإنسان المختلطة كانت تتعدى الحدود التي تقسمها الشرائع الزمنية والكنسية ، وكانت بعض النساء يعتقدن أن ورعهن في آخر الأسبوع يكفر عن مريحهن وبطنهن . وكان الاغتصاب شائعاً (٩) رغم ما يتعرض له المغتصب من أشد ضروب العقاب ، وكان الفرسان الذين يخدمون النساء أو الفتيات الكريزمات المولد نظير قبلة أولسة من أيديهن يسلمون أنفسهم بخادعات هؤلاء السيدات والفتيات ، ومن أولئك السيدات من لم يكن يستطعن النوم مرتاحات الضمائر إلا إذا هيان بأنفسهن هذه التسلية (١٠)

كان مما يأسف له فارس لاتور لاندرى La Tour Landry انتشار الفسق بين بعض الشبان من أبناء الأشراف ؛ وإذا أخذنا بأقواله فإن بعض رجال الطبقة التي ينتمى إليها كانوا يفسقون في الكنائس بل « على المذبح » نفسه ؛ وهو يحدثنا عن « ملكتين استمتعتا بهجنين الآثمة وبلذتهن داخل الكنيسة في أثناء الصلاة المقدسة في يوم خميس الصعود

أثناء الصيام»^(١١) . ويصف وليم المالمزبرى William of Molmsbury أشراف النورمان بأنهم منهمكون في البطنة والدعارة « وأهم يتبادلون العاشقات بعضهم مع بعض»^(١٢) خشية أن يضعف الوفاء حدة الشهوة . وكان الأطفال غير الشرعيين منشرين في جميع أنحاء العالم المسيحي ، وكانت سيرتهم موضوعاً لآلاف القصص ، وكان أولاد الزنا أبطال عدد من هذه القصص ففهم كوشولان Cuchulain ، وآرثر Arthur ، وجاوين Gawain ورولان Roland ، ووايم الفاتح ، وكثيرون من الفرسان المذكورين في تواريخ فرواسار Froissart .

وتمشى العهر مع مطالب ذلك الوقت ؛ فقد كان بعض النساء الداهيات إلى الحج يكسبن نفقة الطريق ، كما يقول الأسقف بنيفاس ، ببيع أجسادهن في المدن القائمة في طريقهن^(١٣) . وكان كل جيش يتعقبه جيش آخر من العاهرات لا يقل خطراً عن جيش أعدائه . ويحدثنا ألبرت من أهل إيكس Aix فيقول إن « الصليبيين كان بين صفوفهم جمع حاشد من النساء في ثياب الرجال ، يسافرن معهم دون أن يميزن عنهم ، ويغتنمن الفرصة التي تتاح لهن مع الرجال»^(١٤) . ويقول المؤرخ العربى عماد الدين إنه في أثناء حصار عكا حضرت ثلثمائة من الفرنسيات الحسان ليروحن عن الجنود الفرنسيين . . . لأن هؤلاء أبوا أن يخرجوا للقتال إذا حرموا لذة النساء ، فلما رأى جنود المسلمين هذا طلبوا أن يهيا لهم ما هي لهؤلاء^(١٥) . ويقول جرانفيل إن الأشراف الذين كانوا مع القديس لويس في حربه الصليبية « أقاموا مواخيرهم حول خيمة الملك»^(١٦) . وكان طلبة الجامعات ، وبخاصة في باريس ، ممن استبدت بهم الحاجة إلى هذا الترفيه أو رغبوا في محاكاة غيرهم فيه ، ولهذا أنشأت الفتيات مراكز لسد هذه الحاجة^(١٧) .

وأباح بعض المدن - أمثال طوانوز (طلوشه) ، وأفنيون ، ومنبلييه ، ونورمبرج - هذه الدعارة قانوناً ، ووضعها تحت إشراف البلديات بحجة أنه بغير

هذا الدنس لا تستطيع النساء الصالحات أن يخرجن إلى الشوارع وهن آمانات على أنفسهن (١٨) . وكتب القديس أوغسطين يقول : « إذا منعت العاهرات والمواخير ، اضطربت الدنيا من شدة الشبق » (١٩) ، ووافقه على ذلك القديس تومس أكويناس (٢٠) . وكان في لندن في القرن الثاني عشر صف من « المواخير » بالقرب من جسر لندن . وقد أجاز أسقف ونشستر في بادئ الأمر قيامها ، ثم صدق البرلمان على قيامها فيما بعد (٢١) . وقد حرم القانون الذي أصدره البرلمان عام ١١٦١ على صاحبات بيوت الدعارة أن يأوين فيها نساء يعانين آلام « الضعف الخطر من الاحتراق » - وهذا أول ما عرف من التشريع ضد انتشار الأمراض السرية . وقرر لويس التاسع في عام ١٢٥٤ نفي جميع العاهرات من فرنسا ، ونفذ هذا القرار فعلا ، ولكن الدعارة السرية لم تلبث أن حلت محل التجارة العلنية ، حتى شكوا أهل الطبقات الوسطى من أنه يكاد يكون من المستحيل حماية الفضيلة لدى زوجاتهم ونسائهم من إلحاح الجنود والطلاب . وعم انتقاد هذا القرار في آخر الأمر حتى ألغى في عام ١٢٥٦ . وحدد المرسوم الجديد الأماكن التي تستطيع فيها العاهرات أن يسكن ويمارسن مهنتهن في باريس ، وحدد أيضاً ملابسهن وزينتهن ، وأخضعهن لرقابة رئيس من رؤساء الشرطة يسمى ملك القوادين أو المتسولين أو الأفاقين roi de ribauds (٢٢) . ونصح لويس التاسع وهو يحضر ولده أن يعيد المرسوم الذي قضى بنفي العاهرات ، ونفذ فليب وصيته ، وكانت النتيجة هي النتيجة السابقة نفسها ، وبقي القانون مدوناً في سجل الشرائع الفرنسية ولكنه لم ينفذ (٢٣) . وكان في رومة ، كما يقول الأسقف دوران الثاني المندي Bishop Durand II of Mende (١٣١١) ، مواخير بالقرب من القاتيكان ، وقد أجاز رجال البابا إقامتها نظراً ما يتقاضون من الأجور (٢٤) . وكانت الكنيسة تظهر العطف على العاهرات ، وأقامت ملاجئ للتألمات من النساء ، ووزعت على الفقيرات الصدقات التي كانت تتلقاها من العاشقات التألمات (٢٥) .

الفصل الثالث

الزواج

كان الشباب في عصر الإيمان قصير الأجل ، وكان الزواج يحدث فيه مبكرا ، وكان في وسع الطفل وهو في السابعة من عمره أن يوافق على خطبته ، وكان هذا التعاقد يتم في بعض الأحيان ليسهل به انتقال الملكية أو حمايتها . ولقد تزوجت جراس صليبي، Grace de Saleby في الرابعة من عمرها بشريف عظيم يستطيع حماية ضيعتها الغنية ، ثم مات هذا الشريف ميتة سريعة فتزوجت وهي في السادسة من عمرها بشريف آخر ، وزوجت وهي في الثالثة عشرة بشريف ثالث (٢٧) . وكان يستطيع حل هذا الرباط في أى وقت من الأوقات قبل سن البلوغ ، وكان يفترض أن تكون هذه السن هي الثانية عشرة للبنات ، والرابعة عشرة للولد (٢٨) . وكانت الكنيسة ترى أن رضى الوالدين أو الأوصياء غير ضرورى للزواج الصحيح إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وتحرم زواج البنات قبل الخامسة عشرة ؛ ولكنها كانت تسمح بكثير من الاستثناءات ، لأن حقوق الملكية في هذه المسألة كانت تغطي على نزوات الحب ، ولم يكن الزواج لإحداثا من حوادث الأعمال المالية . وكان العريس يقدم لوالدى الفتاة هدايا أو مالا ، ويعطيها « هدية الصباح » ويضمن لها حق بائنة في مزرعته . وكان هذا الحق في إنجلترا هو أن يكون للأرملة استحقاق مدى الحياة في ثلث ما يتركه الرجل من الأرض . وكانت أسرة الزوجة تقدم الهدايا للزوج ، وتخصص لها بائنة تتكون من الثياب ، والأثاث الثمين ، والآنية والأثاث ، والأملاك في بعض الأحيان . وكانت الخطبة عبارة عن تبادل عهود أو مواعيق ، وكان العرس نفسه ميثاقا (واسمه

الإنجليزى Wedding مشتق من اللفظ الإنجليسكونى Weddian ومعناه الوعد) وكان القرين spouse هو الشخص الذى أجاب responded « إني أريد » .

وكانت الدولة والكنيسة معاً تعدان الزواج صحيحاً إذا تم بناء على تبادل عهد شفوى بين الطرفين ولو لم يصحبه أى احتفال قانونى أو كنسى (٢٩) . وكانت الكنيسة تريد أن تحبى النساء بذلك من أن يهجرهن من يغوينهن ، وتفضل هذا الاتحاد عن الفسق أو التسرى ؛ ولكنها كانت بعد القرن الثانى عشر تنكر شرعية الزواج الذى يتم دون مصادقة الكنيسة ، وأخذت بعد مجلس ترنت (١٥٦٣) تتطلب حضور قس فى هذا التعاقد . وكان القانون الزمنى يرحب بتنظيم الكنيسة لشئون الزواج ؛ فكان براكتن Bracton (المتوفى عام ١٢٦٨) يرى أن لابد من إقامة احتفال دينى لكى يصبح الزواج صحيحاً . ورفعت الكنيسة شأن الزواج إلى مقام القداسة ؛ وجعلته ميثاقاً مقدساً بين الرجل والمرأة والله ؛ ثم بسطت سلطانها القانونى تدريجاً على كل خطوة من خطوات الزواج ، من واجبات فراش الزوجية إلى وضعية الزوج الأخيرة قبل الوفاة . وذكر قانونها ثبثاً طويلاً من « موانع الزواج » ؛ فكان يجب أن يكون كلا الطرفين غير مقيد برباط زواج سابق ، أو بنذر أنذره أن يظل بغير زواج ، وكان الزواج بمن لم يعتمد محرماً ؛ غير أنه وجدت مع ذلك حالات من الزواج بين المسيحيين واليهود (٣٠) . وكان الزواج بين الأرقاء بعضهم وبعض ، وبين الأرقاء والأحرار ، المستمسكين بالدين الصحيح والضالين ، وحتى بين المؤمنين والمخرومين ، كان الزواج بين هؤلاء يعد صحيحاً (٣١) . ويجب ألا يكون بين الطرفين صلة تصل إلى الدرجة الرابعة من القرابة - أى أنه يجب ألا يكون لهما جد مشترك فى خلال أربعة أجيال ؛ وفى هذه المسألة كانت الكنيسة ترفض القانون الرومانى وتقبل القانون البدائى قانون الزواج من خارج العشيرة خشية أن يؤدى الزواج بين الأقارب الأدينين إلى الانحطاط الناشئ من التناسل داخل دائرة الأسرة ؛ ولعلها كانت تعمل بذلك على منع تركيز الثروة

نتيجة للروابط الأسرية الضيقة . وكان من الصعب تجنب هذا الزواج الداخلي في القرى الريفية ؛ فكان لابد للكنيسة أن تتغاضى عنه ، كما كانت تتغاضى عن كثير من الشغرات الأخرى بين الحقيقة والقانون .

ويجىء بعد حفلة الزواج موكب العرس — بموسيقاه المدوية وثيابه الحريرية الفاخرة — يسير من الكنيسة إلى منزل العريس ، وتعبه الحفلات في هذا البيت طول النهار كله ونصف الليل . ولا يصبح الزواج صحيحاً حتى يتم اتصال الزوجين . وكان منع الحمل محرماً ، ويرى أكويناس أنه جريمة لا تزيد عنها شناعة إلا جريمة القتل العمد^(٣٢) ، بيد أن وسائل مختلفة بعضها آلية ، وبعضها كيميائية وبعضها سحرية ، كانت تستخدم لهذا المنع ، وكان أكثر ما يعتمد عليه هو وقف الجماع^(٣٣) . وكانت العقاقير المجهضة ، أو المؤدية إلى العقم ، أو إلى العجز الجنسي ، أو إلى الشبق ، تباع مع الباعة المتنقلين . وكانت العقوبات التي وضعها ربانس مورس *Rabanus Maurus* للتكفير عن الآثام تقضى على « من تخلط منى زوجها بطعامها حتى تحسن قبول حبه ، بالندم على فعلتها ثلاثة أعوام »^(٣٤) . وكان وأد الأطفال نادراً ، وقد أنشأت الكنيسة من أموال الصدقات في القرن السادس وما بعده ملاجئ للقطاء في عدة مدن ؛ ودعا مجلس عقد في رون *Rouen* في القرن الثامن النساء اللاتي ولدن أطفالاً في السر أن يودعنهم عند باب الكنيسة ، وأعلنت أنها ستكفلهن ؛ وكان أولئك الأيتام يربون ليكونوا أرقاء أرض يعملون في أملاك الكنيسة . وقرر قانون أصدره شارلمان أن الأطفال الذين يعرضون للجو في الخلاء يصبحون عبيداً لمن يتقنوسهم ويربونهم . وأنشأ راهب من منبلييه حوالي عام ١١٩٠ جماعة إخوان الروح القدس التي تخصصت في حياة اليتامى وتعليمهم .

وكان عقاب الزنا قاسياً ، مثال ذلك أن أقل ما كان يحكم به القانون السكسونى على الزوجة التى تخون زوجها هو جدد أنفها وصلم أذنها ، وأجاز لزوجها أن يقتلها . ولكن الزنا كان منتشرارغم هذه العقوبات الشديدة وأمثالها^(٢٥) ؛ وكان أقل ما يكون انتشاراً بين الطبقات الوسطى ، وأكثر ما يكون بين الأشراف . فكان سادة الإقطاع يغفون رقيقات الأرض ولا يحكم عليهم إلا بغرامة قليلة : فن « وطفى » بنتاً « من غير شكرها » أى رغم إرادتها - أدى للمحكمة ثلاثة شلنات^(٢٦) . ويقول فريمان Freeman إن القرن الحادى عشر « كان عصراً فاسقاً » ، وكان يعجب من وفاء ولیم الفاتح الظاهرى لزوجته^(٢٧) وهو وفاء لا يستطيع أن يعزو مثله لأبيه ؛ ويقول تومس ريت Thomas Wright الأريب إن « مجتمع العصور الوسطى كان مجتمعاً فاسد الأخلاق فاجراً »^(٢٨) .

وكانت الكنيسة تجيز انفصال الزوجين بسبب الزنا ، أو الارتداد عن الدين ، أو القسوة الشديدة ، وكان هذا الانفصال يسمى *divortium* ولكن معناه لم يكن إبطال الزواج ؛ أما هذا الإبطال فلم يكن يمنح إلا إذا ثبت أن الزواج قد خالف أحد الموانع الشرعية التى نص عليها قانون الكنيسة . ويبعد أن تكون هذه الموانع قد ضوعف عددها عن قصد لكى يستعين على الطلاق من يستطيعون أداء الرسوم والنفقات الضخمة التى يتطلبها إبطال الزواج ، بل إن الكنيسة كانت تستخدم هذه الموانع استخداماً حكماً مرناً فى الظروف الاستثنائية التى يرجى أن يؤدى الطلاق فيها إلى وجود وارث إلى ملك لم ينجب أبناء ، أو يكون من ورائه فائدة أخرى للسلم أو السياسة . وكان القانون الألمانى يجيز الطلاق فى حالة الزنا ، بل كان يجيزه فى بعض الأحيان إذا اتفق عليه الطرفان^(٢٩) . وكان

الملوك يفضلون قانون أسلافهم على قانون الكنيسة الصارم ؛ وكان سادة الإقطاع وسيداته يعودون إلى القوانين القديمة فيطلق بعضهم بعضاً من غير إذن الكنيسة ؛ ولم تبلغ الكنيسة في سلطانها واستمساكها بمقتضيات الذمة والضمير درجة من القوة تمكنها من تنفيذ قراراتها إلا بعد أن رفض إنوسنت الثالث أن يوافق على طلب الطلاق الذي تقدم به إليه فليب أغسطس ملك فرنسا القوي .

الفصل الرابع

النساء

كانت نظريات رجال الكنيسة بوجه عام معادية للمرأة ؛ فقد تغالت بعض قوانين الكنيسة في إخضاعها ؛ لكن كثيراً من مبادئ المسيحية وشعائرها رفعت من مكانتها . وكانت المرأة في تلك القرون لاتزال في نظر القساوسة وعلماء الدين كما كانت تبدو لكريستوم - « شراً لا بد منه ، وإغواء طبعياً ، وكارثة مرغوباً فيها ، وخطراً منزلياً ، وفتنة مهلكة ، وشراً عليه طلاء » (٤٠) . وكانت لاتزال حواء مجسدة في كل مكان ، حواء التي خسر بسببها الجنس البشري جنات عدن ، وأداة الشيطان المحببة التي يقود بها الرجال إلى الجحيم . وكان تومس أكويناس ، وهو في العادة رسول الرحمة ، يتحدث عنها كما يتحدث الرهبان ، فيزها من بعض النواحي منزلة أقل من منزلة الرقيق :

إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها ، الجسمية والعقلية معاً (٤١) ... والرجل مبدأ المرأة ومنهاها ، كما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه (٤٢) ... وقد فرض الخضوع على المرأة عملاً بقانون الطبيعة ، أما العبد فليس كذلك (٤٣) ... ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم (٤٤) .

وأوجب قانون الكنيسة على الزوج حماية زوجته ، كما أوجب على الزوجة طاعة زوجها . وقد خلق الله الرجل لا المرأة ، في صورته هو . ويعقب العالم بالقانون الكنسي على ذلك بقوله : « ويتضح من هذا أن الزوجة يجب أن تكون خاضعة لزوجها ، بل يجب أن تكون له أقرب ما تكون إلى الخادمة » (٤٥) . على أن في هذه الفقرات نغمة الرغبات المرجوة للاحقات الواقعة . غير أن الكنيسة

كانت تختم على الرجل ألا يتزوج بأكثر من واحدة ، وتصر على أن يكون القانون الأخلاقي ذا مستوى واحد للرجال والنساء على السواء ، وتكرم المرأة بعبادة مريم ، وتدافع عن حق المرأة في وراثة الممتلكات .

وكان القانون المدني أشد عداء للمرأة من القانون الكنسى . فقد كان كلا القانونين يجيز ضرب الزوجة^(٤٦) ، ولما أن أمرت « قوانين بوقيه وعاداتها في القرن الثالث عشر » الرجل ألا يضرب زوجته « إلا لسبب »^(٤٧) كان ذلك خطوة كبرى إلى الأمام . وكان القانون المدني ينص على ألا تُسمع للنساء كلمة في المحكمة « لضعفهن »^(٤٨) ، ويعاقب على الإساءة للمرأة بغرامة تعادل نصف ما يفرضه على الرجل نظير هذه الإساءة نفسها^(٤٩) . وقد حرم القانون النساء ، حتى أرقاهن مولداً ، من أن يُمثّلن ضياعهن في برلمان إنجلترا أو في الجمعية العامة للطبقات بفرنسا . وكان الزواج يعطى الزوج الحق الكامل في الانتفاع بكل ما لزوجته من متاع وقت الزواج والتصرف في ريعه^(٥٠) . ولم يكن يرخص للمرأة أن تكون طيبة .

وكان في حياتها الاقتصادية من التنوع بقدر ما كان في حياة الرجل ، فكانت تتعلم وتبشر فنون البيت العجيبة المجهدة : تصنع الخبز والفطائر المتنوعة ، وتطهو اللحم ، وتصنع الصابون والشمع ، والزبد والخبز ، وتعصر الجعة ، وتستخرج الأدوية البيتية من الأعشاب ، وتغزل الصوف وتنسجه ، وتنسج الأقمشة الثيلية من الكتان ، وتخيظ الملابس لأسرتها ، والسجف والملاءات ، وأغطية الأسرة ، والأنسجة التي تزين بها الجدران . وكان عليها أن تزين بيتها وتحتفظ به نظيفاً إلى الحد الذى يسمح به من فيه من الرجال ، وأن تربي الأطفال . وكانت في خارج الكوخ الزراعى تشترك بقوة وجلد في أعمال المزرعة : تبذر ، وتزرع ، وتحصد ، وتطعم الفراخ الصغار ، وتحلب البقر ، وتجز الأغنام ، وتساعد على إصلاح البيت ونقشه وبنائه . وإذا كانت من سكان المدن ، كانت وهى في

البيت أو في الخانات ، تقوم بغزل ما يلزم لنقابات المنسوجات الطائفية من غزل ونسيج . ولقد كانت شركة من « نساء الحرير » أول ما أنشأ في إنجلترا فنون غزل الحرير وثنيه ونسجه^(٥١) . وكان عدد النساء في معظم نقابات الحرف الإنجليزية مساوياً لعدد الرجال ، ويرجع معظم السبب في هذا إلى أن الصناعات كان يسمح لهم أن يستخدموا زوجاتهم وبناتهم ، ويسجلوا أسماءهن في النقابات . وكانت بعض النقابات الطائفية المخصصة للصائغيات من النساء تتألف من النساء وحدهن ، وكان في باريس في آخر القرن الثالث عشر خمس عشرة نقابة طائفية من هذا النوع^(٥٢) . على أن النساء قلما كن رئيسات في نقابات الحرف المكونة من الذكور والإناث ، وكن يتقاضين أجوراً أقل من أجور الرجال نظير الأعمال المتساوية . وكانت نساء الطبقات الوسطى يعرضن بملابسهن ثروة أزواجهن ، ويقمن بدور مثير في الأعياد الدينية والحفلات الاجتماعية التي تقام في البلدة . وقد ارتفعت ساء الأشراف الإقطاعيين ، باشتراكهن في تحمل التبعات مع أزواجهن ، وتقبلهن في ظرف وتمنع ما يقدمه الفرسان وشعراء الفروسية الغزلون من مراسم التبرجيل والغرام ، ارتفعت أولئك النسوة إلى منزلة اجتماعية قلما ارتفعت إليها النساء من قبل .

وقد وجدت المرأة في العصور الوسطى بفضل مفاتها ، كما تجد عادة ، رغم أوامر الدين والقانون ، وسائل للتحرر من نتائج عجزها ؛ ولهذا فإن آداب ذلك العصر ملأى بأخبار النساء اللاتي حكمن رجالهن^(٥٣) . ولقد كانت المرأة من وجوه كثيرة متفوقة على الرجل معترفاً لها بهذا التفوق ، فكانت في أسر الأشراف تتعلم شيئاً من الأدب ، والنم ، والتهذيب ، بينما كان زوجها غير المتعلم يكدح ويحارب ؛ وكان في وسعها أن تظهر بكل ما لصاحبات الندوات الأدبية في القرن الثامن عشر من رشاقة ، وتتصنع الإغماء كما تتصنعه البطلة في روايات رتشر دسن Richardson . وكانت في الوقت نفسه تنافس الرجل في حريته البذيئة في القول والفعل ، وتبادل

وإياه قصص المغامرات ، وكثيراً ما كانت هي البائدة في الغرام دون حياء^(٥٤) . وأيا كانت الطبقة التي تنتمي إليها فقد كانت تنقل بكامل حريتها ، وقلمها كان معها محرم . وكانت تزحم الأسواق وتسيطر على الاحتفالات ، وتصاحب الرجال في الحج ، وتشارك في الحروب الصليبية ؛ ولم يكن شأنها فيها للتسلية فحسب ، بل كانت في بعض الأوقات جندياً في عدة الحرب الكاملة . وكان الرهبان الخوارو العود يحاولون أن يقتلوا أنفسهم بأن منزلتها دون منزلة الرجال ؛ ولكن الفرسان كانوا يقتلون لنيل رضاها والشعراء يقرؤون بأنهم عبيد لها . وكان الرجال يتحدثون عنها بوصفها خادماً مطيعاً ، ويحلمون بها على أنها إلهة معبودة . وكانوا يصلون لمريم العذراء ولكنهم يقنعون إذا حصلوا على إليانور الأكتانية Eleanor of Aquitaine .

ولم تكن إليانور هذه إلا واحدة من عشرات النساء العظيمات في العصور الوسطى — أمثال جلا بلاسيديا Galla Plaidedia ، وثيودورا ، وإيرينه Irene ، وأنا كينا Anna Commena ، وماتلده كوتنة تسكانيا ، وماتلده ملكة إنجلترا ، وبلانش النبرية Blanche of Navarre ، وبلانش القشتالية ، وهلواز Héloïse ... وكان جد إليانور وليم العاشر الأكتاني ، أميراً وشاعراً ونصيراً للشعراء الغزلين وزعماً لهم . وكان يفد إلى بلاطه في بوردو أحسن الفكهين والظرفاء وذوو الشهامة في جنوبي فرنسا الغربي ؛ وقد تربت إليانور في هذا البلاط لتكون ملكة الحياة والآداب جميعاً . واتصفت بكل ما كان في هذا الجو المشمس الحر من ثقافة وأخلاق : قوة في الجسم ، ورشاقة في الحركة ، وقوة في العاطفة الخلقية والجسمية ، وحرية في العقل والآداب والحديث ، وخيال شعري ، وروح مشرقة ، وهيام لا حد له بالحب ، والحرب ، والملاذات كلها ، يكاد يصل إلى الموت . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها (١١٣٧) عرض عليها ملك فرنسا أن يتزوجها ، لأنه كان يتوق إلى ضم دوقيتها أكتين ،

وثغرها العظيم بوردو إلى تاجه وموارده المالية . ولم تكن تعرف أن لويس السابع بليد وورع ، منهمك أشد الانهماك في شئون الدولة . فانتقلت إليه بمرحها ، وجمالها ، وتحررها من مقتضيات الضمير ، فلم يعجبه إسرافها ، ولم يهتم بالشعراء الذين تبعوها إلى باريس ليعجزوها على رعايتها إياهم بالمدائح والقوافي .

وكانت شديدة الشوق إلى المغامرات ، فاعترمت أن تصحب زوجها إلى فلسطين في الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧) ، ولبست هي ووصيفاتها ملابس الرجال والخلل العسكرية ، وبعثن بمغازلهن في ازدراء إلى الفرسان القاعدين في أوطانهم ، وركبن في مقدمة الجيش يلوحن بالأعلام الزاهية ومن ورائهن الشعراء الغزلون^(٥٥) . وأهملها الملك أو لامها ، فسمحت لنفسها في أنطاكية وغيرها من الأماكن ببعض مغامرات الحب ، فأشيع مرة أنها تحب عمها ريمند الپنتيري Raymond of Pontiers ، ومرة أخرى أنها تحب عبداً مسلماً جميلاً ، وقال الغامون الجهلاء مرة ثالثة إنها تحب صلاح الدين التقيّ الورع نفسه^(٥٦) . وصبر لويس على هذا العبث ، وعلى لسانها السليط ، وأكن القديس برنار شهر بها في العالم . وظنت أن الملك سيطلقها ، فقاضته في عام ١١٥٢ تطلب الطلاق منه بحجة أن نسبهما متصل في الدرجة السادسة . وابتسمت الكنيسة ساخرة من هذه الحجة ، ولكنها منحت الطلاق ، وعادت إليانور إلى بوردو ، واستعادت حقها في ملك أكتين ، وفيها التفت حولها طائفة كبيرة من الخاطبين ، اختارت منهم هنرى پلانتاجنت Henry Plantagenet وليّ عهد إنجلترا ؛ وبعد سنتين من ذلك الوقت أصبح هنرى الثانى ، وعادت إليانور ملكة مرة أخرى (١١٥٤) - « ملكة إنجلترا بغضب الله » على حد قولها .

وجاءت إلى إنجلترا بأذواق الجنوب ، وظلت فيها ، كما كانت في فرنسا ، المشترعة العليا للشعراء القصّاصين والغزلين ، ونصيرتهم ، ومعبودتهم . وكانت وقتئذ قد بلغت السن التي تمكّنتها من أن تكون وفية ، ولم يجد هنرى ما يشينها .

ولكن الآفة انعكست ؛ فقد كان هنرى أصغر منها بإحدى عشرة سنة ولم يكن ينقص عنها فى حدة المزاج وقوة العاطفة ؛ وسرعان ما أخذ يشبع حبه بين نساء البلاط . واستشاطت إيلانور غضباً واكتوى قلبها بنار الغيرة ، وهى التى كانت من قبل تحتقر الرجل الغيور . ولما أنزلها هنرى عن عرشها هربت من إنجلترا ، تريد أن تختمى بأكتين ؛ فأمر بتعقبها ، وقبض عليها ، وزجت فى السجن ؛ وظلت ستة عشر عاماً يذبل غضبها فيه وإن لم يقل ذلك من قوة إرادتها . وأثار الشعراء الغزلون عواطف أوربا على الملك ، واثمر به أبناؤه ، بإيعاز منها ، لخلعه ، ولكنه ظل يقاومهم ويحاربهم إلى يوم مماته (١١٨٩) . وخلف رتشرد قلب الأسد أباه ، وأخرج أمه من السجن ، وعيّن نائبه للملك إنجلترا حين خرج لقتال صلاح الدين فى الحرب الصليبية ، ولما أصبح ابنها جون ملكاً ، آوت إلى دير فى فرنسا ، حيث ماتت « من الحزن ، وضعف العقل » فى الثانية والسبعين من عمرها . لقد كانت إيلانور « زوجة فاسدة ، وأمّاً فاسدة ، وملكة فاسدة » (٥٧) ؛ ولكن منذ الذى يفكر فيها على أنها من جنس خاضع ذليل ؟

الفصل الخامس

الأخلاق العامة

ما فتئت الشرائع والحكم الأخلاقية في كل عصر من العصور تقاوم ما درج عليه الآدميون من غش وخيانة . ولم يكن الناس في العصور الوسطى الطيب منهم والخبث أكثر أو أقل من غيرهم في هذه الناحية ، فكانوا يكذبون على أبنائهم وأزواجهم ، وطوائفهم ، وأعدائهم ، وأصدقائهم ، وحكوماتهم ، وربهم . وكان الرجل في العصور الوسطى مولعاً أشد الولع بتزوير الوثائق ، يزور الأناجيل غير الصحيحة ، ولعله لم يقصد في يوم من الأيام أن تؤخذ على أنها أكثر من قصص طريفة ؛ وزور الأوامر البابوية ليتخذها سلاحاً في السياسة الدينية ؛ وكان الرهبان الأوفياء يزورون العهود ليكسبوا بها منجاً لأديرتهم من المالك^(٥٨) . ولقد زور لافرانك رئيس أساقفة كانتربري ، كما تقول الحكمة البابوية ، عهداً يثبت به قدم كرسية الدين^(٥٩) ؛ وزور المدرسون عهوداً يخلعون بها على بعض الكليات في كيمبردج أقدمية زائفة ، وكثيراً ما أفسدت « الأكاذيب النقية » النصوص ، واخترعت ألف معجزة تعظم بها أصحابها . وكانت الرشوة منتشرة في التعليم ، والتجارة ، والحرب ، والدين ، والحكومة ، والقانون^(٦٠) ؛ وكان تلاميذ المدارس يرسلون الفطائر لممتحنينهم^(٦١) ، ورجال الحكم يتدومون الرشا ليعينوا في المناصب العامة ، ويجمعون من أصدقائهم ما يلزمهم من المال^(٦٢) . وكان من المستطاع تقديم الرشا للشهود لكي يقسموا أى قسم يراد منهم ، كما كان المتقاضون يقدمون الهدايا إلى المحلفين والقضاة^(٦٣) ؛ وقد اضطر إدورد ملك إنجلترا أن يفصل معظم قضاة ووزرائه في عام ١٢٨٩ لأنهم مرتشون^(٦٤)

وكانت القوانين تتطلب أن يقسم الناس الأيمان في كل صغيرة وكبيرة ، فكانوا يقسمون على الكتب أو الخلفات المقدسة ؛ وكان يطلب إليهم في بعض الأحيان أن يقسموا بالألا يتقصوا القسم الذى يوشكون أن يقسموه (٦٥) ؛ ومع هذا فإن الحث بالأيمان قد كثر إلى حد جعل الناس يلجئون إلى تحكيم القتال رجاء أن يظهر الله أى الجانبين أكثر كذباً من الجانب الآخر (٦٦) .

وكثيراً ما كان أرباب الحرف في العصور الوسطى يخدعون المشترين ببيعهم بضائع قديمة بالية ، أو منقوصة الطول ، أو يحتالون عليهم ببيعهم سلعاً غير المرغوب فيها . وكان بعض الخبازين يسرقون أجزاء صغيرة من العجين أمام أعين ملائهم ، ويستخدمون لذلك الغرض باباً سرياً في وعاء العجين ؛ وكانت أقشة رخيصة توضع سرّاً في مكان أقشة غالية دفع ثمنها وتعهّد البائعون بتوريدها ؛ وكان الجلد الرخيص « يزيّن » لكي يبدو شبيهاً بأحسن أنواع الجلود (٦٧) ، وكانت الحجارة تحباً في أكياس الدريس والصوف التى تباع بالوزن (٦٨) ؛ وآتهم الذبن يعثون للحموم في نوروتش Norwich بأنهم « يشترّون الخنازير المصابة بالحصبة ، ويصنعون منها وزماً وفطائر مضرّة بالصحة » (٦٩) . ويصف برثلد الرجنسبرجى Berthold of Regenesburg (حوالى ١٢٢٠) مختلف أنواع الغش التى تستخدم في الحرف المتباينة ، والحيل التى يحتال بها التجار في الأسواق على أهل الريف (٧٠) . وكان الكتاب والوعاظ ينددون بالجرى وراء الثروة ، ولكن حكمة ألمانية من حكم العصور الوسطى تقول : « إن كل الأشياء تطيع المال » ؛ وكان بعض الأخلاقيين في تلك العصور يرون أن حب الكسب أقوى من الغريزة الجنسية (٧١) . ولسنا ننكر أن شرف الفروسية كثيراً ما كان من الحقائق الواقعة نظام الإقطاع ، ولكن يبدو أن القرن الثالث عشر لم يكن يقل ولعاً بالمادة عن أى عهد آخر من عهود التاريخ . تلك كلها أمثلة من الاحتيال والخداع جمعتهما من أزمنة طويلة ومساحات واسعة ؛ وهى بلا ريب من الوقائع

الشاذة رغم كثرة عددها ؛ وليس من حقنا أن نستخلص منها نتيجة أكثر من أن الناس في عصر الإيمان لم يكونوا خيراً منهم في عصرنا هذا عصر الشك ، ومن أن القانون والأخلاق قلما أفلحا في الاحتفاظ بالنظام العام ضد ماركب من نزعة فردية في طبيعة الناس الذين لم يقصد بهم بفطرتهم أن يكونوا مواطنين خاضعين للقانون .

وكانت معظم الدول تعاقب على جريمة السرقة الخطيرة بالإعدام ، كما كانت الكنيسة تحكم على مرتكبي السطو بالحرمان من الدين ؛ ومع هذا فإن السرقة بأنواعها - من النشل في الطرق إلى الأشراف النهابين على ضفاف الرين - كانت من الجرائم الواسعة الانتشار . وكان مرتزقة الجنود الجياع ، والمجرمون الفارون والفرسان المفلسون ، يجعلون الطرق غير آمنة ؛ وكانت شوارع المدن تشهد في ظلام الليل كثيراً من الشجار ، والسرقة ، والاغتصاب ، والاغتيال^(٧٢) . وتدل سجلات أسباب الوفاة في « إنجلترا الطروب » في القرن الثالث عشر على « نسبة في الاغتيال إذا حدثت في هذه الأيام عُدَّت من الفضائح »^(٧٣) . ويكاد الاغتيال يبلغ ضعف عدد حالات الموت بسبب الحوادث المفاجئة ، وقلما كان يقبض على المجرمين . وكانت الكنيسة تجاهد وهي صابرة للقضاء على حروب الإقطاع ، ولكن ما نالته من نصر متواضع في هذه الناحية كان سببه أنها حولت الناس وخصامهم إلى الحروب الصليبية ، التي كانت من إحدى النواحي حروباً استعمارية تبغى الفتح والمكاسب التجارية ؛ فلما اشتبك المسيحيون في الحرب لم يكونوا أكثر رضا بالهزائم أو أكثر وفاء بالعهود والمعاهدات من المحاربين الممتنين إلى الأديان والعهود الأخرى .

ويبدو أن القسوة والوحشية كانتا في العصور الوسطى أكثر منهما في أية حضارة قبل حضارتنا نحن . ذلك أن المتبربرين لم يتخلوا عن بربريتهم بمجرد أن صاروا مسيحيين . وكان رجال الأشراف ونساؤهم يصفعون خدمهم ويصفعون

بعضهم بعضاً ؛ كما كان القانون الجنائي قاسياً قسوة وحشية ، ولكنه عجز مع ذلك عن قمع الوحشية والجريمة . فكثيراً ما كان التعذيب بالعدراء ، ويحفنة الزيت الملتهب ، وبعمود الإحراق ، وحرق الأحياء ، وسلخ جلودهم ، وتمزيق أطرافهم بشدها إلى الحيوانات ، كثيراً ما كانت هذه الوسائل الوحشية تستخدم في العقاب . وكان القانون الأنجليسكسوني يعاقب الجارية السارقة بإرغام ثمانين جارية على أن تؤدى كل واحدة منهن غرامة ، وأن تأتى بثلاث حزم من الوقود وأن تحرق السارقة حية (٧٥) . ويقول سلمبيني Salimbene الراهب الإيطالي في تاريخه الإخباري ، وكان معاصراً للحروب التي شبت ناراها في إيطاليا الوسطى في القرن الثالث عشر ، إن المسجونين كانوا يعاملون بوحشية لو أننا سمعنا بها في شبابنا لما صدقناها :

فقد كانوا يربطون رعوس بعض الرجال بجبل ومخلة ، ويشدون الحبل بقوة تخرج عيونهم من أوقابها ، وتسقطها على خدودهم ؛ ومنهم من كانوا يربطونهم بإبهام يدهم اليمنى أو اليسرى وحدها ، تحمل ثقلهم كله بعد أن يرفعوا عن الأرض ، ومنهم من كانوا يعذبون بصنوف من العذاب أشنع من هذه وأشد منها رهبة أخجل من ذكرها ؛ وآخرون ... كانوا يجلسون وأيديهم مشدودة خلف ظهورهم ، ويضعون تحت أقدامهم أوعية مملوءة بالفحم الملتهب ... أو يربطون أيديهم بأرجلهم حول حفرة (كما يربط الحمل وهو ينقل إلى التنصاب) ويبقونهم معلقين على هذا النحو طول النهار من غير ما طعام ولا شراب ؛ أو كانوا يحكون قضبات أرجلهم بقطعة خشنة من الخشب حتى يظهر عظم الساق عارياً من اللحم ، وهو عمل تكني رؤيته وحدها لأن تبعث الأسى والألم في النفوس (٧٦) . وكان رجل العصور الوسطى يتحمل الألم بشجاعة ، ولعله كان أقل إحساساً به مما يبدو على رجال أوربا الغربية في هذه الأيام . وكان الرجال والنساء من جميع الطبقات شهوانيين إلى حد بعيد ؛ وكانت أعيادهم ولأئم شراب ، وميسر ،

ورقص ، وانطلاق في العلاقات الجنسية ؛ وكانت فكاهاتهم صريحة في بذاعتها صراحة لاتكاد تماثلها فيها فكاهات هذه الأيام (٧٧) ؛ وكانت أحاديثهم أكثر من أحاديث هذه الأيام حرية وأوسع منها مجالا (٧٨) ؛ وقلم كان رجل في فرنسا يفتح فاه من غير أن يذكر الشيطان ، على حد قول جوانفيل (٧٩) . وكان الناس في العصور الوسطى أقدر على سماع الفحش منا ، ولم يكونوا يرمون من الإصغاء إلى أفحش الأقوال التي وردت في مقالات ربلية Rabelais ؛ وحسبنا أن نذكر أن الراهبات في كتب تشوسر كن يستمعن دون حياء إلى الأفذار الواردة في قصة ملر Miller's Tale ؛ وفي أخبار سلمبيني الصالح أجزاء تبلغ من البذاءة والفحش درجة تعز على الترجمة (٨٠) . وكانت الحانات كثيرة العدد ، وكان منها ما يقدم « فطائر » بالجمعة على طراز هذه الأيام (٨١) . ولقد حاولت الكنيسة أن تغلق الحانات في أيام الآحاد ، ولكنها لم تلق إلا قدراً ضئيلاً من النجاح . وكان من حق جميع الطبقات أن تسكر في بعض الأوقات ، وقد وجد زائر لمدينة لوبك Lübeck نساء من طبقة الأشراف في حجرة الخمر يدمن الشراب من تحت أفتنهن (٨٢) . وكان في كولوني جمعية يلتقي أعضاؤها لشرب النبيذ مجتمعين وقد اتخذت شعاراً لها : « اشرب وأنت مرح » ولكنها كانت تفرض على أعضائها قواعد صارمة من الاعتدال في السلوك والأدب في الحديث .

وكان رجل العصور الوسطى كغيره من الرجال مزيجاً بشرياً كاملاً من الشهبانية والغرام ، والذلة ، والأنانية ، والقسوة ، والرقّة ، والصلاح ، والشره ؛ فقد كان أولئك الرجال والنساء ، الذين يشربون ويسبون بكل ما فيهم من قوة ، رحماء رحمة تمس شغاف القلوب ، يخرجون آلاف الصدقات . وكانت القطط والكلاب وقتئذ كما هي الآن حيوانات مدللة ، وكانت الكلاب تدرب على قيادة المكفوفين (٨٥) ؛ وقد نمت في قلوب الفرسان عاطفة الحب لخيولهم ، وصقور صيدهم ، وكلابهم . وبلغ تنظيم الصدقات مستوى رفيعاً جديداً في القرنين الثاني

عشر والثالث عشر ، فكان الأفراد ، وكانت النقابات الطائفية ،
والحكومات ، والكنيسة ^{تشارك} كلها في تخفيف آلام المنكوبين . وكان
إخراج الصدقات واجبا عاما يؤديه الجميع ؛ فالذين يرجون دخول الجنة
يوصون بالأموال للصدقات ، والرجال الأغنياء يتبرعون بمهور البنات
الفقيرات ، ويطعمون العشرات من الفقراء في كل يوم ، والمئات منهم
في الأعياد الكبرى . وكان الطعام يوزع عند كثير من أبواب بيوت
الأشراف ثلاث مرات في الأسبوع على كل من يطلبه ^(٨٦) . وكانت كل
سيدة عظيمة ، إلا القليل النادر منهن ، تحس أن واجبا الاجتماعى ، إن لم يكن
واجبا الأخلاق ، أن تشارك في تدبير شئون الصدقات ؛ ولقد دعا روجر
بيكن في القرن الثالث عشر إلى أن تنشئ الدولة رصيذاً للإئفاق منه على
للفقراء ، والمرضى ، والطاعنين في السن ^(٨٧) ، ولكن القسط الأكبر من هذا
العمل ترك تدبيره إلى الكنيسة ؛ فقد كانت الكنيسة من إحدى نواحيها
مُنْتَظَمَةٌ للصدقات تشمل القارة بأسرها ؛ وكان جريجورى الأكبر ،
وشارلمان ، وغيرهم يهتمون أن يخصص ربع العشور التى تجبها كل أبرشية
لمعونة الفقراء والعجزة ^(٨٨) ؛ وقد نفذ هذا إلى حين ، ولكن استيلاء الرؤساء
من رجال الدين والعلمانيين على إيرادات الأبرشيات ، أدخل بإدارتها
لمواردها في القرن الثانى عشر ، وتحمل عبء هذه الصدقات أكثر من ذى
قبل الأساقفة ، والرهبان ، والراهبات والبابوات . وكانت الراهبات
كلهن ، إلا عددا قليلا من الخاطئات ، يهبن أنفسهن للتعليم ، والتمريض ،
وأعمال البر ؛ وإن أعمالهن المطردة الاتساع فى هذه النواحي لتعد من أنصع
الأعمال وأعظمها تقوية للعزائم فى تاريخ العصور الوسطى وتاريخ هذه الأيام .
وكانت الأدبيرة التى تستمد مواردها من الهبات والصدقات ، وإيراد الأملاك
الكنسية ، تطعم الفقراء ، وتعنى بالمرضى ، وتفتدى الأسرى ؛ وكان آلاف
من الرهبان يعلمون الشبان ، ويعنون بالأبتام ، ويعملون فى المستشفيات ؛
وكان دير كلونى العظيم يكفر عما له من ثراء واسع بالتصدق بالكثير من أمواله ؛

وكان البابوات يبذلون كل ما في وسعهم لمساعدة فقراء رومة ، وواصلوا بطريقتهم الخاصة النظام الإمبراطوري القديم نظام توزيع الطعام على الأهلين . ولكن التسول كان كثيراً بالرغم من هذا البر كله ؛ فقد كانت المستشفيات وبيوت الإحسان تحاول إطعام كل من يقصدها وإيواءهم ؛ وسرعان ما أحاط أبوابها العُرج ، والمقعّدون ، والمقطوعو السيقان ، والمكفوفون ، والأفاقون ذوو الثياب البالية الذين يتنقلون من « مستشفى إلى مستشفى ويجوسون خلالها يتصيدون لقيات الخبز وقطع اللحم » (٨٩) . وقد اتسع نطاق التسول في العالم المسيحي في العصور الوسطى وزاد المتسولون إصراراً على مهنتهم ، وبلغ هذا الانساع والإصرار حداً لا نظير له في أفقر الأراضي في الشرق الأقصى .

الفصل السادس

ملابس العصور الوسطى

تُرى أى صنف من الناس كان سكان أوروبا فى العصور الوسطى ؟
ليس فى وسعنا أن نقسمهم عناصر ، فقد كانوا جميعاً من «العنصر الأبيض»
إذا استثنينا منهم العبيد الزنوج ، ولكنهم كانوا مع هذا خليطاً متنوعاً من
الخلق لا يستطيع أحد تصنيفهم . كان منهم يونان بيزنطية وهلاس ؛
والإيطاليون أنصاف اليونان سكان إيطاليا الجنوبية ، وسكان صقلية اليونان
- المغاربة - اليهود ؛ وكان منهم أهل إيطاليا الرومان ، والأمبريون ،
والتسكان ، والمبارد ، والجنويون ، والبنادقة ؛ وقد بلغ من تباين هؤلاء
أن كانت كل طائفة منهم تنم عن أصلها يثابها ، وشعر رأسها ، ولسانها ؛
وكان منهم البربر ، والعرب ، واليهود ، ومسيحيو أسبانيا ، وكان منهم
الفرنسيون الغسقونيون ، والبرغنديون ، والباريسيون ، والنورمان ؛ ومنهم
أهل الأراضى الوطيئة الفلمنكيون ، والوالون Walloons ، والهولنديون ؛
ومنهم أهل إنجلترا الكلت ، والإنجليز ، والسكسون ، والدنمركيون والسلالات
النورمانية ؛ وكلت ويلز ، وأيرلندة ، واسكتلندة ، والنرويجيون ،
والسويديون ، والدنمركيون ؛ ومنهم ماثات القبائل الألمانية ؛ والفنلنديون ،
والمجر والبغار ؛ وصقالبة بولندة ، وبوهيميا ؛ والدول البلطية ، والبلقان ،
والروسيا . وقصارى القول أن أوروبا قد تجمع فيها خليط من الدماء
والأجناس . والأنوف ، واللحي ، والثياب ، لا ينطبق على تباينه العظيم
أى وصف من الأوصاف .

وكان الجنس الألماني قد أصبحت له الغلبة فى الطبقات العليا فى جميع بلاد
أوروبا الغربية ما عدا جنوبي إيطاليا وأسبانيا ، وذلك بسبب الهجرات والفتوح

التي لا يحصى عديدها . وقد بلغ الإعجاب بشعر الجنس الأشقر وعيونه مبلغاً اضطر القديس برنار أن يجاهد طوال موعظة كاملة لكي يوفق بين هذا الإعجاب وبين العبارة الواردة في نشيد الإنشاد القائلة : إلى أسود ولكن جميل ؛ وكان الفارس المثالي طويلاً ، أشقر ، ملتحمياً ؛ كما كانت المرأة المثالية في الملاحم والروايات نحيلة ممشوقة القوام ، رشيقة ، زرقاء العينين ، ذات شعر طويل أشقر أو ذهبي . وقد حل محل شعر الفرنجة الطويل عند الطبقات العليا في القرن التاسع رءوس مقصوصة الشعر من الخلف ، وليس عليها من الشعر إلا غطاء في أعلاها ؛ واختفت اللحي بين الطبقات العليا من الأوربيين في القرن الثاني عشر ؛ غير أن الذكور من الزرّاع ظلوا يطيلون لحاهم القذرة وشعر رؤسهم إلى حد اضطرّوا معه أحياناً إلى جمعه في جدائل^(٩٠) . وكان أهل إنجلترا على اختلاف طبقاتها يطيلون شعر رؤسهم ، وكان المتأنقون الفناجرة في القرن الثالث عشر يصبغون شعرهم ويلوونهم بمكاي من الحديد ، ويربطونه بالأشرطة^(٩١) . وكانت النساء المتزوجات في هذا القرن وذاك البلد يربطن شعرهن بشبكة من الخيوط الذهبية ، بينما كان الغلمان من الطبقات العليا يرسلونه على ظهورهم ، وكانت لهم في بعض الأحيان بالإضافة إلى هذا ، جديلتان تنوسان على صدورهم منحدرتان فوق أكتافهم^(٩٢) .

وكان أهل أوروبا الغربية في العصور الوسطى أكثر وأجل ثياباً مما كانوا قبل ذلك الوقت أو بعده ؛ وكثيراً ما كان الرجال يفوقون النساء في زينة الثياب وبهجة ألوانها . وكانت الجبة والعباءة الرومانيتان الفضفاضتان في القرن الخامس عشر تحاربان حرباً خاسرة مع السراويل القصيرة والمناطق التي كان الغاليون يلبسونها ويتمنطقون بها ؛ فقد كان جو الشمال الحار وأعماله الحربية يتطلبان ثياباً أضيق وأتمك مما أوحى به دفء الجنوب وما فيه من راحة ؛ ولما انتقل مركز القوة إلى شمال جبال الألب أعقب ذلك الانتقال ثورة في الثياب . فكان الرجل العادي يلبس سروالاً طويلاً ضيقاً يعلوه قباء ، أو قبص نصفي ، مصنوعان من

الجلد أو القماش المتين ، ويعاق في منطقته سكيناً ، وكيساً ، ومفاتيح ، وعدد الصانع إن كان من الصنّاع ؛ وكان يرسل فوق كتفيه لفاعة أو حرملة ، ويضع على رأسه قلنسوة أو قبعة من الصوف ، أو اللباد أو الجلد ؛ ويغطي رجله بجوربين طويلين ، وينتعل حذاءين عاليين من الجلد ينحنيان إلى أعلى عند أصابع القدمين ، كيلا يتمزقا من الاصطدام . وازداد طول الجورب قرب أواخر العصور الوسطى حتى بلغ أعلى الفخذ ، وتطور منه السروال غير المريح الذي استبدله الرجل الحديث بقميص الشعر ثوب القديسين في العصور الوسطى ، كأن هذا السروال كفارة غير منقطعة عن ذنوبه الماضية . وكانت أجزاء الثياب كلها تقريباً من الصوف إلا القليل منها المصنوع من الجلد المدبوغ وغير المدبوغ الذي كان يلبسه الفلاحون أو الصائدون ؛ وكانت كلها تقريباً تغزل وتنسج وتفصل وتخاط في البيت ؛ ولكن الأغنياء كان لهم خياطون خاصون يسمون في إنجلترا « المقصات » ، واستغنى قبل القرن التاسع عشر عن الأزار التي كانت تستعمل من حين إلى حين في العهد القديم ، ثم عادت إلى الظهور لتكون زينة لا ينتفع بها في شيء ؛ ومن هنا جاءت عبارة « لا يساوى زرا Not worth a button » الإنجليزية (٩٣) . ونشأت في ألمانيا في القرن الثاني عشر بين الرجال والنساء على السواء عادة لبس جلباب ذي حزام فوق الحلة الألمانية الضيقة .

وكان الأغنياء يزينون هذه الأثواب الأساسية بمائة من الوسائل التي تفتق عنها خيالهم . فكانت حواشيها وأطرافها اللاصقة للعنق تسوى بالفراء ؛ وحل الحرير ، أو الأطلس ، أو المخمل محل التيل أو الصوف حيث يسمح بذلك الجو ؛ وغطى الرأس بقلنسوة من المخمل ، وانتعلت أحذية من القماش الملون تنطبق كل الانطباق على شكل القدمين . وكانت أجمل الفراء تستورد من روسيا ؛ وأحسنها كلها الفراء الثمينة المتخذة من جلد القاقم الأبيض ؛ وكان يحدث أن يرهن الأشراف أرضهم لبيتاعوا جلد قاقم لزوجاتهم . وكان الأغنياء يلبسون سراويل

تحتية من التيل الأبيض الرفيع ، وجورياً طويلاً ملوناً في أغلب الأحيان ، ومصنوعاً عادة من الصوف ، وفي بعض الأحيان من الحرير ؛ وقيصاً من التيل الأبيض ، ذا طوق فاخر وردن جميل ؛ وكان يلبس فوق هذا كله مئزراً ، ومن فوقها كلها في الجو البارد أو المطير عباءة ، أو حرملة ، يمكن أن تمتد حتى تغطي الرأس . وكانت بعض القلائس ذات قمة مستوية مربعة ؛ وقد اصطنع هذه القلائس المعروفة باسم « ألواح الملاط mortiers » الحمامون والأطباء في أواخر العصور الوسطى ، وبقيت الآن في أثواب كبار رجال الكليات الجامعية . وكان المتأثقون في الثياب يلبسون قفازين في كل الجواء و« يكنسون الأرض المتربة بأذيال مآزرهم وجلايبهم الطويلة » كما يقول الراهب أردركس فيتالس Ardericus Vitalis شاكيامتحسراً^(٩٤) .

ولم يكن الرجال يزينون بالحلى أجسامهم وحدها ، بل كانوا يزينون بها أيضاً ثيابهم - قلانسهم ، ومآزرهم ، وأحذيتهم . وكانت بعض الأردية تطرز عليها باللؤلؤ نصوص مقدسة أو عبارات بذينة^(٩٥) ؛ وأخرى تزين أطرافها بمخرمات منسوجة من خيوط الذهب أو الفضة ؛ ومنهم من كان يلبس ثياباً من خيوط الذهب . وكان على الملوك أن يميزوا أنفسهم بزينة أكثر من هذه كلها ؛ فكان إدورد المعترف يلبس مئزراً مزركشاً بالذهب من صنع زوجته المهذبة إدجيثا Edgitha ، وكان شارل الجسور Charles the Bold صاحب برغندي يلبس مئزراً فخماً مطعماً بالحجارة الكريمة ومثقلاً بها يقدر ثمنه بمائتي ألف دوقية (نحو ١٠٠٠ر ٨٢ر ١٠ دولار) . وكان الناس كلهم عدا الفقراء منهم يتختمون ، وكان لكل إنسان ذى شأن ولو ضئيل خاتم منقوش عليه رمز الخالص ، وكانت أية علامة بهذا الخاتم تقبل على أنها توقيع هو نفسه .

وكانت الملابس تعد دليلاً على منزلة الإنسان وأثرائه ، وكانت كل طبقة تحتاج إذا قلدت أثوابها الطبقة التي دونها ، وقد سنت القوانين المالية - كما حدث

في فرنسا في سنتي ١١٤٩ و ١٣٠٦ - لتنظم ما يتفق عليه الناس على ملابسهم حسب ثرواتهم وطبقاتهم . وكانت حاشية السيد العظيم ، أو جماعة الفرسان التابعين له ، تلبس في المناسبات والأعمال الرسمية أثواباً يهديها هو إلى أفرادها مصبوغة باللون المحبب له أو الذي يميزه عن غيره ؛ وكانت هذه الحلل الخاصة تسمى بالفرنسية livrée (وبالإنجليزية livery) (ومعناها الموزعة) لأن السيد الكبير كان يوزعها (deliver) مرتين في العام . على أن الأثواب الجيدة في العصور الوسطى كانت تعمل لتبقى مدى الحياة ، ومنها ما كان يعنى أصحابه بالنص على من توول إليه في وصيته .

وكانت نساء الطبقات العليا يلبسن قميصاً طويلاً من التيل ، ومن فوقه جلباب أو مئزر ذو حواش من القراء يصل إلى القدمين ويعلوه قميص نصفي يبقى منفرج الطرفين إذا لم يكن في الدار غرباء ، ولكنه يربط طرفاه إذا جاء البيت زوار ؛ وذلك لأن جميع النساء المتأنقات يتقن إلى أن يظهرن نخیلات القوام . وقد يتمنطقن بمناطق مرصعة بالجواهر ، ويمسكن بكيس من الحرير ، ويلبسن بأيديهن قفازاً من جلد الشامواه . وكثيراً ما كن يضعن الأزهار في شعرهن ، أو يربطنه بخيوط من الحرير ذات الجواهر . وكانت بعض السيدات يثرن غضب رجال الدين ، وغضب أزواجهن بلا ريب ، بأن يلبسن قبعات طويلة مخروطية مزدانة بقرنين ؛ وقد جاء على النساء حين من الدهر كانت فيه المرأة غير ذات القرنين هدفاً لسخرية الساخرين^(٩٦) . وأصبحت الكعاب العالية في أواخر العصور الوسطى هي الطراز المحبب ؛ وكان الناقدون الأخلاقيون يشكون من أن النساء كثيراً ما يرفعن أطراف أثوابهن بوصة أو بوصتين ليظهرن أرساغهن وأحذيتهم الظريفة ؛ أما سيقان النساء فلم يكن يبصرها إلا الأخصاء ، وكانت رؤيتها غالية الثمن . وقد ندد دانتي بنساء فلورنس لظهورهن علناً في ثياب « تكشف عن صدورهن وأندائهن »^(٩٧) . وكانت ثياب النساء في حفلات

الرجاس موضعاً للتعليقات المثيرة من رجال الدين ؛ وقد وضع الكرادلة قوانين يحددون بها طول أثواب النساء ؛ ولما أمر رجال الدين أن تلبس النساء النقاب حرصاً على أخلاقهن « جعلن هذا النقاب يصنع من الموصلين الرقيق والحريير المشغول بالذهب ، فظهرن فيه أجمل عشرات المرات مما كن بغيره ، واستلفتن عيون النظارة وأغرينهم بالفساد أكثر من ذى قبل » (٩٨) ؛ وكان جويو البروفنسى Guyot of Provins يشكو من أن النساء يستخدمن المساحيق على وجوههن بكثرة لم يبق معها من هذه المساحيق شيء تلوّن به الصور والتماثيل في الكنائس ، وأنذرهن بقوله لهن حين يلبسن الشّعير المستعار ، أو يضعن الكمادات أو مسحوق القول ولبن الخيل على وجوههن لتجميلها ، إنما يُضفن بذلك مئات السنين لمقامهن في الأعراف (٩٩) . وقد عتّف برثلد الرجنسبرجى Berthold of Regenesburg حوالى ١٢٢٠ النساء بفصاحة ما كان أضيّعها :

أيّها النساء ، إنكن ذوات حنان عظيم ، وإنكن لأسرع في الذهاب إلى الكنيسة من الرجال . . . ومنكن من سينجون لولا شرك واحد تقعن فيه : . . . ذلك أنكن تردن أن تنلن إعجاب الرجال فتصرفن جهودكن كلها في زينة ثيابكن . . . والكثيرات منكن يؤدين للخياطة أجراً لا يقل عن ثمن الثوب نفسه ؛ فالثوب يجب أن يكون له وقايتان على الكتفين ، ويجب أن يثني وتكون له أهداب حول أطرافه كلها ؛ وأنن لا تكتفين بإظهار فخركن في عُرّى أزراركن أنفسها ، بل إنكن فوق هذا ترسلن أقدامكن إلى الجحيم بما تحملنها من أنواع العذاب الخاصة بها . . . وأنن تشغلن أنفسكن بهراقعكن ! وتحولنها تارة إلى هذه الناحية وتارة أخرى إلى تلك ، وتطرزنها في مواضع مختلفة بخيوط الذهب ، وتصرفن فيها كل جهودكن ، فتقضى إحداكن ستة أشهر كاملة في صنع نقاب واحد ، وهو عمل آثم لا تبتغى به أكثر من أن يثني الرجال على ثيابها فيقولون : « زيناّه ! ما أجمله ! هل وُجد من قبل ثوب يضارعه في الجمال ؟ » . أما هن

فيقلن : « أيها الأخ برثلد ، إنا لا تفعل هذا إلا إكراما للرجل الصالح ، حتى تقل نظراته إلى غيرنا من النساء » . لا ، ياسيدتي ، صدقي ، لو أن رجلك الصالح صالح بحق ، لفضل أن يستمع إلى حديثك الطاهر عن النظر إلى زينتك الخارجية . . . إن في وسعكم أيها الرجال أن تقضوا على هذا ، وتكافحوه بقوة ؛ بالقول الحسن أولا ، فإذا أصررن على عنادهن ، فأقدموا بشجاعة . . . وانزعوه من فوق رؤوسهن ، ولو اقتلعت معه أربع شعرات أو عشر ، وألقوه في النار ! ولا تفعلوا هذا مرتين أو أربع مرات فحسب ؛ وسترون أنهم سرعان ما يرجعون عن غيبن^(١٠٠) »

وكانت النساء في بعض الأحيان يتأثرن بهذا الوعظ ، وحدث قبل أيام سفنرولا Savonarola بمائتي عام أن ألقين براقعهن وحليهن في النار^(١٠١) . ولكن أمثال هذه الثوبة كانت لحسن الحظ نادرة وقصيرة الأجل ه

الفصل السابع

في المنزل

لم يكن منزل العصور الوسطى مريحاً كثيراً ؛ فقد كانت نوافذه قليلة ،
وقلما كان بها ألواح زجاجية ؛ وكانت المصاريع الخشبية تغلقها لمنع البرد
ووهج الشمس . وكان موقد يدفئ المنزل أو أكثر من موقد ، وكانت التيارات
الهوائية تدخله من مئات الثقوب التي في الجدران ، وتجعل المقاعد ذات
الظهور العالية نعمة كبرى . وكان من عادة سكانها أن يلبسوا في الشتاء
قبعات وفراء مدفنة في داخل المنزل نفسه . وكان الأثاث قليلا ولكنه جيد
الصنع ، والكراسي أيضاً قليلة ، وكانت في العادة غير ذات ظهور ، ولكنها
كانت في بعض الأحيان محفورة حفراً جميلا ، ومنقوشاً عليها شارات أصحابها
المميزة ، ومطعمة بالحجارة الكريمة . وكانت معظم المقاعد تحفر في أبنية
الجدران أو تبنى فوق صناديق في مظلات البساتين . وكانت الطنافس نادرة
الاستعمال قبل القرن الثالث عشر ، ولكن إيطاليا وأسبانيا كانتا تستعملانها ؛
ولما انتقلت إليانور القشتالية إلى إنجلترا في عام ١٢٥٤ للزواج من إدورد
الأول غطى خدمها أرض جناحها في وستمنستر بطنافس كما يفعل أهل أسبانيا -
ومن ثم انتشرت هذه العادة في إنجلترا . أما أرض البيوت العادية فكانت
تنثر عليها الأعشاب أو القش ، فكانت بعض البيوت لهذا السبب كريهة
الرائحة إلى حد يأتى معه قس الأبرشية أن يزورها . وكانت أنسجة مزركشة
تغطي بعض الجدران ، لتزيينها وتمنع عنها تيارات الهواء ، ولتقسم بهو
المنزل الكبير إلى حجرات صغيرة . وظلت بيوت إيطاليا وبروفانس
تمحفظ بذكريات الترف الرومانى ، فكانت لذلك أوفر راحة وأكثر مراعاة

لشروط الصحة من بيوت شمال أوروبا . وكانت بيوت الطبقات الوسطى فى ألمانيا تحصل على ما يلزمها من الماء من مضخات مركبة على آبار توصل الماء إلى المطبخ (١٠٣) .

ولم تكن النظافة فى العصور الوسطى من الإيمان ؛ وكانت المسيحية الأولى قد نددت بالحمامات وقالت إنها بوئر للفساد والفسق ، وكان تحقيرها للجسم بوجه عام مما جعلها تهمل العناية بقواعد الصحة . ولم يكن استعمال المنديل على الطريقة الحديثة معروفاً فى ذلك الوقت (١٠٣) ؛ وكانت النظافة تتبع الثروة وتختلف باختلاف دخل الأفراد ؛ فكان السيد الإقطاعى ، ورجل الطبقة الوسطى المثرى ، يستحان مرات معقولة فى أحواض خشبية كبيرة ، ولما انتشر الثراء فى القرن الثانى عشر انتشرت معه نظافة الجسم ؛ وكانت مدن كثيرة فى ألمانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا فى القرن الثالث عشر تحتوى حمامات ؛ ويقول أحد الكتاب إن أهل باريس كانوا يستحمون فى عام ١٢٩٢ أكثر مما يستحمون فى القرن العشرين (١٠٤) ، وكان من نتائج الحروب الصليبية إدخال حمامات البخار العامة من بلاد الإسلام إلى أوروبا (١٠٥) ؛ وكانت الكنيسة تعارض وجود الحمامات العامة بحجة أنها تفسد الأخلاق ؛ وكان لهذه المخاوف ما يبررها فى كثير من تلك الحمامات ؛ وكان فى بعض البلدان حمامات معدنية عامة .

وكان بالأدبرة ، وقصور سادة الإقطاع ، وبيوت الأغنياء ، مراحيض تفرغ محتوياتها فى بالوعات ، ولكن سكان معظم البيوت كانوا يقضون حاجتهم فى مراحيض خارج البيت ، وكان المرحاض الخارجى الواحد فى كثير من الحالات يبنى بحاجة اثنى عشر منزلاً (١٠٦) . وكانت الأنابيب التى تنقل الفضلات من ضروب الإصلاح التى أدخلت إلى إنجلترا فى عهد إدورد الأول (١٢٧١ - ١٣٠٧) وكانت أوعية حجرات النوم فى بيوت باريس فى القرن الثالث عشر تفرغ من النوافذ فى شوارع المدينة ، ولا يصحب هذا العمل إلا تحذير للمارة :

احذروا الماء ! Gar l'eau - وظلت هذه الحوادث المفاجئة السيئة يتكرر ذكرها في المسالى إلى أيام مولير . وكانت المراحيض العامة ترفاً نادر الوجود ؛ وقد وجد بعضها في سان جيميانو San Gimignano عام ١٢٥٥ ، ولكن فلورنس لم يكن فيها وقتئذ شيء منها^(١٠٧) ، فكان الناس يقضون حاجتهم في فناء المنزل ، وعلى درج السلم ، وفي الشرفات ؛ وكان ذلك يحدث في قصر اللوفر نفسه . وقد صدر مرسوم بعد وباء ١٥٣١ يحتم على أصحاب البيوت في باريس أن ينشئوا مرحاضاً في كل بيت ، ولكن هذا الأمر كثيراً ما كان يخالف^(١٠٨) .

وكان أفراد الطبقات العليا والوسطى يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، لأنهم كانوا يتناولون معظم الطعام بأصابعهم ؛ ولم تكن هناك إلا وجبتان منتظمتان في اليوم ، إحداهما في الساعة العاشرة صباحاً ، والأخرى في الرابعة مساء ؛ غير أن كلتا الوجبتين قد تدوم عدة ساعات . وكان موعد الوجبة في البيوت الكبيرة يعان بالنفخ في بوق الصيد . وقد تكون مائدة الطعام ألواحاً خشنة تقام على قوائم من الخشب ، وقد تكون أحياناً خواناً عظيماً متين الصنع من الخشب الثمين المحفور حفرأ يدعو إلى الإعجاب ، وكان من حولها مقاعد أو دكك ، والدكة تسمى بالفرنسية banc ومنها اشتق لفظ banquet للوليمة . وكانت في بعض البيوت الفرنسية آلات عجيبة ترفع مائدة كاملة الإعداد من طبقة سفلى أو تنزلها من طبقة عليا ، ثم تزيلها من فوراً حين يفرغ الجالسون من تناول الطعام^(١٠٨) ، وكان الخدم يحملون أباريق الماء لكل طاعم يغسل فيها يديه ويحففهما في قطائل يأخذها أولئك الخدم ، ولم تكن هذه القطائل تستخدم في القرن الثالث عشر ، ولكن الطاعمين كانوا يحففون أيديهم في غطاء المائدة^(١١٠) . وكان الطاعمون يجلسون أزواجاً ، كل زوج مكون من رجل وامرأة ، وكان كل اثنين يأكلان عادة من صفحة واحدة ، ويشربان من كوب واحد^(١١١) . وكان كل فرد يعطى ملعقة ؛ وكانت الشوك معروفة في القرن الثالث عشر ، ولكنها قلما كانت تقدم

للطاعمين ؛ وكان الآكل يستخدم سكينه الخاصة . وكانت الأكواب ، وأطباقها ،
والصحاف تصنع عادة من الخشب (١١٢) ، ولكن سادة الإقطاع والأغنياء من
الطبقة الوسطى كانت لهم صحاف من الخرف أو من مزيج القصدير والرصاص ،
ومنهم من كان يضع على المائدة أدوات من الفضة ، بل إنها كانت تتخللها
آنية من الذهب في بعض الأحيان (١١٣) . وقد تضاف إلى هذه الآنية صحاف
من الزجاج ، وصفحة أخرى كبيرة من الفضة في صورة سفينة ، تحتوى
أنواعا من التوابل ، وسكين صاحب الدار وملعقته . وكان كل اثنين من
الآكلين يعطيان قطعة كبيرة من الخبز ، مستوية ، ومستديرة ، وسميكة .
يضع عليها كل واحد اللحم والخبز يأخذها بأصابعه من الصحيفة العامة التي
يدار بها عليه . وكان الطاعم يأكل هذه القطعة بعد نهاية الطعام أو تعطى إلى
الكلاب والتقطط التي يقص بها المكان ، أو ترسل إلى الفقراء من الجيران .
وكانت الوجبة العظيمة تختتم بالتوابل والحلوى ، ثم بالنبيذ .

وكان الطعام موفورا ، أو متنوعا ، وحسن الإعداد ، إلا أن انعدام
وسائط التبريد سرعان ما كان يفسد اللحم ، ويعلى من شأن التوابل التي
يستطاع بها حفظه أو إخفاء تلفه : وكانت بعض هذه التوابل تستورد
من بلاد الشرق ولكن غلو ثمنها كان يجعل الناس يزرعون غيرها في
حدائق البيوت - ومن هذه البقدونس ، والخردل ، والقصعين ،
واليانسون ، والثوم ، والشبث . . . وكانت كتب الطهو كثيرة ومعقدة ؛
وكان الطاهي في المنزل العظيم رجلا عظيم الشأن يحمل على كنفه كرامة البيت
وسمعه . وكانت لديه طائفة كبيرة من الأوعية النحاسية ، وآنية الغلي ؛
والقدور ؛ وكان يفخر بما يقدمه من الأصناف التي تسر العين وتلذ الفم .
وكان اللحم ، والدجاج ، والبيض رخيصا (١١٤) ، وإن كان ثمنها مع ذلك
يضطر الفقراء إلى الاقتصاد على الخضروهم كارهون (١١٥) . وكان الفلاحون
يطعمون الخبز الأسمر الحشن المصنوع من دقيق الشعير ، والشوفان ،

أو الشيلم كاملا ، يخبز في البيت ؛ أما سكان المدن فكانوا يفضلون الخبز الأبيض - يصنعه الخبازون - يظهرون بذلك علوهم عن أهل الريف . ولم تكن هناك بطاطس ، أو بن ، أو شاي ؛ ولكن اللحوم والخضر التي تؤكل الآن في أوروبا - ومنها ثعابين الماء ، والضفادع ، وحيوانات القواقع البحرية - كانت كلها تقريبا مما يطعمه رجل العصور الوسطى^(١١٦) . وقبل أن يحل عهد شارلمان كان الأوربيون قد أتموا ، أو كادوا يتمون ، أقلمة الفواكه وأنواع الثقل الآسيوية ؛ غير أن البرتقال كان لا يزال نادرا في القرن الثالث عشر في شمال جبال الألب والبرانس . وكان أكثر اللحوم انتشارا هو لحم الخنزير ؛ فقد كانت الخنازير تقتات بالفضلات التي تلقى في الشوارع ، ثم يأكل الناس الخنازير . وكان من الاعتقادات الشائعة أن لحم الخنزير يسبب الإصابة بالجذام ، ولكن هذا الاعتقاد لم يقلل من رغبة الناس فيه ، وكان الوزم والفصيد^(*) من الأطعمة المحببة في العصور الوسطى ؛ وكان المضيف من العطاء يضع على المائدة في بعض الأحيان خنزيرا كاملا ، ويقطعه أمام ضيوفه ؛ وكان هذا يعد من الأطعمة الشهية التي لا تقل في ذلك عن لحوم الحجل ، والسمان ، والدج ، والطاووس ، والكركي . وكان السمك من الأطعمة الأساسية ، والرنة من الأطعمة التي يعتمد إليها الجنود ، والبحارة ، والفقراء ؛ أما منتجات الألبان فكان استعمالها أقل منه في هذه الأيام ، ولكن جبْن برى Brie اشتهر منذ ذلك الوقت البعيد^(١١٧) . ولم تكن أنواع السلطة قد عرفت ، وكانت الحلوى نادرة . وكان السكر لا يزال يستورد من الخارج ، ولم يكن قد حل بعد محل غسل النحل في التحلية ؛ وكانت الحلوى بعد الطعام هي الفاكهة والنقل ، وكانت الفطائر لا حصر لأنواعها ؛ يشكلها الخبازون هي والكمك بالطف ما يتصوره الخيال من أشكال ولا يلومهم على هذا أحد رجلا كان أو امرأة^(١١٨) . وقد يبدو من الأمور الغريبة التي

لا يصدقها العقل أنهم لم يكونوا يدخلون بعد الطعام ، وكان الرجال والنساء يستبدلون بهذا شرب الخمر .

وإذ كان الماء غير المغلى مما لا تؤمن عاقبته فقد كانت جميع الطبقات تجدد في الجمعة والتبذ بدبلا منه ، ولهذا كان من الأسماء النادرة اسما Drinkwater و Boileau « اشرب الماء » وفي هذا دليل على عدم الميل إلى شربه . وكان من أنواع الخمر خمر التفاح والكثيرى ، وكانا من المسكرات الرخيصة التى يتناولها الفلاحون . وكان السُّكَّر من الرذائل المحببة للرجال والنساء فى العصور الوسطى ، وكانت الحانات يخطئها الحصر ، والجمعة رخيصة الثمن ، فكانت هى شراب الفقراء المعتاد يتناولونه فى جميع الأوقات حتى فى الفطور . وكان يسمح للأديرة والمستشفيات القائمة شمال جبال الألب بجبالون من الجمعة لكل شخص فى اليوم (١١٩) . وكان لكثير من الأديرة ، والقصور ، وبيوت الأغنياء ، معاصرها الخاصة ، لأن الجمعة فى البلاد الشمالية كانت من ضرورات الحياة لا يزيد عليها فى ذلك إلا الخبز . وكان الأغنياء فى كل الأمم ، وجميع الطبقات فى أوروبا اللاتينية ، يفضلون عليها النبيذ ؛ وكانت فرنسا تعصر أشهر أنواعه ، وتتغنى بمدحها فى مئات الأغاني الشعبية . وكان الفلاحون فى وقت قطف الكروم يعملون أكثر مما يعملون فى سائر أيام العام ، وكان رؤساء الأديرة الصالحون يجزونهم على جدهم بإجازة من القواعد الأخلاقية ؛ وتحتوى أغنية كان يتغنى بها نزل دير القديس بطرس فى الغابة السوداء بعض عبارات رقيقة :

فإذا وضع الفلاحون العنب ، جرى بهم إلى الدير وقدم لهم اللحم والشراب بكثرة ؛ ووضعت هناك خابية كبيرة ، وملئت بالنبيذ . . . ليشرب منها كل واحد منهم . . . فإذا لعب الشراب برءوسهم وضربوا الخازن أو الطامى ، لم يؤدوا غرامة من أجل هذا العمل ، وظلوا يشربون حتى لا يستطيع كل اثنين منهم أن يحملوا الثالث إلى العربة (١٢٠) .

وكان رب البيت عادة يسلي المدعوين بعد الوئمة بضروب من الشعوذة ،
والشقلة ، والغناء ، والتهريج . وكان لبعض سادة الإقطاع طائفة خاصة
بهم من هؤلاء المسلمين ؛ وكان لبعض الأغنياء مازحون في وسعهم أن
يوجهوا وقاحتهم المرحية وفكاهاتهم البذيئة دون أن يخشوا عقاباً أو
تأنيباً . وإذا أراد المدعون أن يقوموا هم بتسلية أنفسهم كان في وسعهم
أن يرووا القصص ، أو يستمعوا إلى الموسيقى أو يعزفوها ، أو يرقصوا ،
أو يتغازلوا ، أو يلعبوا النرد ، والشطرنج ، الألعاب الداخلية الأخرى ؛
وحتى الأشراف أصحاب الألقاب من الرجال والنساء كانوا يتراهنون
ويلعبون الغميضاء . ولم تكن ألعاب الورق قد عرفت بعد ، وقد حرمت
القوانين الفرنسية الصادرة في عام ١٢٥٦ و ١٢٩١ صنع النرد أو لعبه ،
ولكن لعب الميسر بالنرد كان واسع الانتشار رغم هذا التحريم ، وكان
رجال الأخلاق يتحدثون عن ثروات فقدت ونفوس ضلت نتيجة للعب
الميسر . ولم يكن هذا اللعب محرماً على الدوام بمقتضى القانون ؛ وكانت
سينا Siena تهيئ له أمكنة في الميدان العام (١٢١) ؛ وقد حرم بأمر من مجلس
عقد في باريس (١٢١٣) وبمرسوم أصدره لويس التاسع (١٢٥٤) ؛
ولكن أحداً لم يكن يهتم بهذا التحريم : وأضحت هذه اللعبة من ضروب
التسلية التي ينهمك فيها الأشراف ويقضون فيها أوقاناً طويلاً ، وهي التي
اشتق منها اسم خازن بيت مال الملك exchequer من المنضدة أو لوحة
الشطرنج المختلفة الألوان Chequered table أو Chessboard التي كان إيراد
الدولة يعد عليها (١٢٢) . وقد ذهل أهل فلورنس في أيام دانتى من لعب
مسلم كان يلعب على ثلاث لوحات مختلفة في وقت واحد مع أمهر لاعبي
المدينة ؛ فقد كان ينظر بعينه إلى إحدى اللوحات ، ويحتفظ بوضع
اللوحتين الآخرين في عقله ، وقد كسب لعبتين وتعادل مع اللاعب الثالث (١٢٣) .
وكانت لعبة الداما معروفة في فرنسا وإنجلترا ، وتسمى في الأولى dames
وفي الثانية draughts .

وكان الواعظون من رجال الدين يحرمون الرقص ، ولكن الناس كلهم تقريبا كانوا يمارسونه إلا من وهبوا أنفسهم للدين . وكان تومس أكويناس ذو النزعة المعتدلة يبيح الرقص في حفلات العرس ، أو في الاحتفال بقدوم صديق من خارج البلاد أو بنصر قومي ؛ وقد بلغ من أمر هذا القديس الطيب القلب أن قال : إن الرقص إذا كان في حدود الأدب رياضة بدنية مفيدة للصحة^(١٢٤) ؛ وأظهر ألبرتس مجنس مثل هذا التسامح ، ولكن رجال الأخلاق في العصور الوسطى كانوا بوجه عام يعترضون على الرقص ويعلدونه من اختراع الشيطان^(١٢٥) ؛ ولم تكن الكنيسة ترضى عنه ، لأنها تراه مغريا بالفناء^(١٢٦) ؛ ولقد بذل شباب العصور الوسطى الجرىء كل ما في وسعه لتبرير مخاوفها^(١٢٧) . وكان الفرنسيون والألمان بنوع خاص مولعين بالرقص ، وابتدعوا كثيراً من ضروب الشعبية ؛ يمارسونها في مواسم السنة الزراعية ، أو في الاحتفال بالنصر ، أو لتقوية روح الشعب المعنوية إذا ألمت به كارثة أو انتشر بينه وباء . ويصف أحد الكتاب رقص البنات في الحقول بقوله : إنه أبهج ملذات الربيع ، وإذا ما احتفل بمنح لقب فارس لأحد الشبان اجتمع كل الفرسان المجاورون له بعدتهم الحربية كاملة ، وقاموا بضروب من الألعاب على ظهور الخيل أو راجلين ، والعامّة من حولهم يرقصون على نغمات الموسيقى العسكرية . وكان الناس أحياناً يسرفون في الرقص حتى يصبح وباء : فقد حدث في عام ١٢٣٧ أن فرقة من الأطفال الألمان ظلت ترقص على طول الطريق من إرفورت Erfurt إلى أرنستادت Arnstadt ؛ حتى مات كثيرون منهم في الطريق ، وظل بعض من نجاهم يعانون مرض الرقص St Yttus'Dance (*) أو غيره من الاضطرابات العصبية الأخرى طول حياتهم^(١٢٨) .

وكان معظم الرقص يدور أثناء النهار وفي الهواء الطلق ؛ ذلك بأن البيوت لم تكن جيدة الإضاءة بالليل — فقد كانت تنار بمصابيح مرتكزة أو معلقة ذات

فتائل وبها زيت ، أو بمشعل من شحم الضأن ؛ وإذ كان الشحم والزيت كلاهما غالياً فقد كان العمل والقراءة قليلين بعد غروب الشمس . ولهذا كان الضيوف يتفرقون بعد الظلام بزمن قليل ، ويأوى أصحاب البيت إلى حجراتهم الخاصة . وقلماً كانت حجرة النوم كافية ، وكان يحدث أحياناً أن يجد الإنسان فراش نوم إضافي في بهو المسكن أو في حجرة الاستقبال . وكان الفقراء ينامون مستريحين على فرش من القش ، والأغنياء ينامون متعبين على وسائل معطرة ، وحشيات من الريش . وكانت فرش العظام تغطي بكلة تقيهم البعوض ويستعان على تعليقها بكراسي . ولم يكن ثمة ما يمنع نوم عدد من الأفراد ذكوراً كانوا أو إناثاً صغاراً أو كباراً في حجرة واحدة . وكان الناس من جميع الطبقات في إنجلترا أو فرنسا ينامون عشرة (١٢٩) .

الفصل الثامن

المجتمع والألعاب

لقد كانت الغلظة التي تتصف بها آداب العصور الوسطى بوجه عام بخففها بعض ما في التأديب والمجاملات الإقطاعية من ظرف . فقد كان الرجال إذا التقوا يسلم بعضهم على بعض باليد ، كأن هذا عهد منهم بالمسألة وعدم الاستعداد لاستلال السيف . وكانت ألقاب الشرف لا حصر لها وكانت متفاوتة المنزلة تبلغ المائة عدا ؛ وكان من العادات الطريفة أن يخاطب كل كبير بلقبه واسمه الأول أو اسم ضيعته . وقد سن قانون للآداب يتبعه أفراد المجتمع الراقى في الظروف المختلفة - في البيت ، وفي أثناء الرقص ، وفي الشوارع ، وفي ألعاب البرجاس ، وفي بلاط الملك ، وكان على السيدات أن يتعلمن كيف يمشين ، ويحجين ، ويركبن الخيل ، ويلعبن ، ويحملن الصقور برشاقة على معاصمهن ... ؛ وكانت هذه الآداب كلها وأخرى مثلها للرجال تؤولف ما يعرف باسم آداب البهروط Courtoisie . وقد نشرت في القرن الثالث عشر إرشادات كثيرة الآداب اللياقة (١٣٠) .

وكان المسافر ينتظر المجاملات والضيافة من أبناء طبقته . فكان المسافرون يستضافون أثناء سفرهم في أديرة الرجال إن كانوا ذكوراً والمسافرات يستضفن في أديرة النساء ، على سبيل الصدقة إن كانوا فقراء أو نظير أجور أو هبات إن كانوا أغنياء . وقد أنشأ الرهبان منذ القرن الثامن مضاييف عند ممرات جبال الألب ، وكان لبعض الأديرة بيوت كبرى للضيوف تتسع لثلثمائة من المسافرين ، وبها اصطبلات لخيولهم (١٣١) . على أن معظم المسافرين كانوا ينزلون في « نزل » أنشئت على الطريق ؛ وكانت رخيصة الأجور ، وفي استطاعته الرجل أن يجد فيها مومساً بأجر

معتدل إذا حافظ على كيس نقوده من السرقة . وكان الكثيرون يتحدون أخطار السفر - لما يجذونه في الطريق من أسباب الراحة السالفة الذكر - ومن هؤلاء التجار ، وأصحاب المصارف ، والقساوسة ، والدبلوماسيون ، والحجاج ، وطلاب العلم ، والرهبان ، والسائحون ، والأفاقون . وكانت طرق العصور الوسطى ، على ما فيها من متاعب وأخطار غير مشجعة على الأسفار ، غاصة بالكثيرين من الناس ذوى التشوف والآمال الذين يظنون أنهم سيكون أسعد حالاً إذا بدلوا مكانهم .

وكانت الفروق بين الطبقات شديدة في الأسفار كما هي في التسلية والألعاب . ولكن الخاصة والسوقة كانوا يختلطون من حين إلى حين : إذا عقد الملك جمعية عامة من أتباعه الإقطاعيين ، ووزع الطعام على المجتمعين ، وإذا قام فرسان الأشراف بحركات عسكرية ، وإذا دخل أمير أو أميرة ، أو مالك أو ملكة إحدى المدن كامل العدة في موكب فخم واصطف الناس على جانبي الطريق العام ليمتعوا أنظارهم بموكبه ، وإذا أقيم برجاس أو عقدت محاكمة بالاقتتال وسمح للجمهور بحضورهما . وكانت المشاهد المنظمة جزءاً أساسياً من الحياة في العصور الوسطى ؛ فقد كانت المواكب الدينية ، والاستعراضات العسكرية ، والاحتفالات التي تقيمها نقابات الحرف ، تملأ الشوارع بالأعلام ، والمشاعل ، وصور القديسين من الشمع ، والتجار السمان ، والفرسان المتبحرين ، والفرق الموسيقية العسكرية ، وكان الماجنون المتنقلون يمثلون مسرحيات قصيرة في القرية أو ميدان المدينة ؛ والمغنون الجائلون يغنون ويلعبون ؛ ويقصون قصص الغرام ، والمشعوذون والقفازون يعرضون ألعابهم ، والرجال والنساء يمشون أو يرقصون على حبال مشدودة فوق هاويات سحيقة خطيرة ؛ وكنت ترى أحياناً رجلين معصوبى العيون يمارس كلاهما بعض الحيل على زميله ؛ أو كان يؤتى بطائفة من الوحوش إلى البلدة حيث تعرض حيوانات غريبة ورجال عجيبيون ، وحيث يقتل حيوان مع حيوان حتى يقتل أحدهما :

وكان الصيد رياضة ملكية يعتمد إليها الأشراف ولا تقل شأنًا عندهم عن المثاقفة . وكانت قوانين الصيد تحدد مواسمه بفترات قليلة في العام ، وكانت للأشراف أملاك يصيدون فيها ويُعَدُّ الاعتداء عليها سرقة بحكم القانون . وكانت غابات أوروبا لا تزال مسكنًا لوحوش لم تعترف بعد بفوز الإنسان في حربه من أجل الاستيلاء على الكوكب الذى تعيش فيه ؛ وحسبنا أن نذكر أن مدينة باريس مثلاً قد هاجمتها الذئاب عدة مرار في العصور الوسطى . وكان الصائد من ناحية ما يعمل للاحتفاظ بسيادة الآدى المزرعة على هذه الأرض ، كما كان يعمل من ناحية أخرى لزيادة موارد الطعام ؛ ولم يكن أقل من هذين العاملين شأنًا أنه كان يُعد نفسه للحرب التى لا مفر منها بتقوية جسمه وروحه وتعويدهما ملاقاتة الأخطار ، والقتال ، وسفك الدماء . وكان فى الوقت عينه يجعل من عمله هذا مهرجانًا . فكانت القرون العظيمة المصنوعة من العاج والمطعمة أحيانًا بالذهب تدعو النساء ، والرجال ، والكلاب : النساء يجلسن فى رشاقة على الجياد المتبخرة وأرجلهن على جانب واحد من السروج ؛ والرجال فى حلل زاهية وعدة حربية متباينة - القوس والسهم ، والبلطة الصغيرة ؛ والحربة ، والسكين ؛ وكلاب الصيد على اختلاف أنواعها تجذب مقاوردها . وإذا ما أدى الطراد إلى عبور حقول الفلاحين ، كان من حق السيد وأتباعه ، وضيوفه أن يعبروا هذه الحقول مهما يكن التلف الذى يصيب البذور والمحاصيل ، ولم يكن يشكو من الفلاحين إلا المتهورون الذين لا يحسبون للعواقب حساباً^(١٣٢) . وقد نظم الفلاحون الفرنسيون الصيد فجعلوا له قواعد ، وسموه الطراد ، ووضعوا له مراسم وآداباً معقدة .

وكانت السيدات يشتركن بنوع خاص فى أكثر ضروب الصيد أرسقراطية - وهو الصيد بالبزاة ، فقد كان فى جميع الضياع الكبرى أقفاص تحوى أنواعاً كثيرة من الطيور ، أغلاها ثمنًا هى البزاة . وكان البازى يعلم الجلوس على معصم السيد أو السيدة فى أى وقت ؛ وكانت بعض السيدات المتأنقات يحتفظن بها وهن

يستمعن إلى الصلاة في الكنائس . وقد ألف الإمبراطور فردريك الثاني كتاباً ممتازاً في الصيد بالبنزة بلغت عدد صفحاته ٥٨٩ صفحة ، وكان هو الذى جاء إلى أوروبا من بلاد الإسلام بعادة السيطرة على أعصاب البازى وتشوقه بتغطية رأسه بغطاء من الجلد . وكانت أنواع مختلفة من البنزة تدرّب على الطيران العالى ، ومهاجمة أنواع مختلفة من الطيور ، وقتلها أو جرحها ، ثم العودة إلى معصم الصائد ، حيث يقربها ويقدم لها قطعة من اللحم جزاء لها على صنعها فتسمح له بأن يضع رجلها في شرك حتى يبصر فريسة أخرى . ويكاد يكون البازى الحسن التدريب أحسن ما يهدى للشريف أو الملك ؛ وقد افتدى أحد أدواق برغندية ولدأ له بأن أرسل اثني عشر صقراً أبيض لأسرة السلطان بايزيد . وكان منصب حافظ البنزة الأكبر في فرنسا من أعلى المناصب وأكبرها مرتباً في المملكة .

وكانت كثيراً من الألعاب الأخرى تخفف عن الناس حر الشمس وبرد الشتاء ، وتحول عواطف الشباب ونشاطه إلى ضروب من المهارة الحيوية . فقد كان كل صبي تقريباً يتعلم السباحة ، وكان الناس كلهم في شمال أوروبا يتعلمون الانزلاق على الثلج ، وكان سباق الخيل من الألعاب المحبوبة الواسعة الانتشار وبخاصة في إيطاليا ؛ وكانت كل الطبقات تمارس الرمي بالقوس والسهام ؛ ولكن طبقات العمال وحدها هي التي كانت تجد فسحة من الوقت لصيد السمك ؛ وكانت في العصور الوسطى ضروب مختلفة من ألعاب الكرة ، ولعبة الكرة والصولجان hockey ، ورمى القرص quoits ، والمصارعة والملاكمة ، والتنس Tennis ، وكرة القدم ... وقد نشأت لعبة التنس في فرنسا ، ولعل منشأها هناك من أصل إسلامي ؛ ويلوح أن اسمها مشتق من لفظ Tenezi الفرنسي أى « اللعب » - وهو اللفظ الذى كان اللاعب يعلن به بدايه لعبه (١٣٣) . وقد انتشرت هذه اللعبة في فرنسا وإنجلترا انتشاراً بلغ منه أن كانت تلعب أحياناً أمام جماهير كبيرة في دور التمثيل أو الهواء الطلق (١٣٤) . وكان الأيرلنديون يلعبون لعبة الكرة والصولجان

منذ القرن الثاني الميلادى ، ويصف مؤرخ بيزنطى من رجال القرن الثانى عشر وصفاً حياً ممتعاً مباراة فى الجحفة (الهولو) استخدمت فيها مضارب ذات أوتار من الحبال شبيهة بلعبة لاكرس Lacrosse الكندية^(١٢٥) . ويقول أحد مؤرخى العصور الوسطى الإخباريين^(*) وهو مروع وجل إن كرة القدم « لعبة بغیضة يدفع فيها الشبان كرة ضخمة ، لا يقذفها فى الهواء ، بل يضربها بالقدم »^(١٣٠) . ويبدو أن هذه اللعبة جاءت من بلاد الصين إلى إيطاليا^(١٣٧) وإنجلترا حيث انتشرت فى القرن الثالث عشر انتشاراً واسعاً ، وقد بلغ من عنفها أن حرمها إدورد الثانى لأنها تؤدى إلى تعكير السلم . (١٣١٤) .

وكان الناس وقتئذ أكثر ميلاً إلى التآلف والاشتراك فى الحياة مما هم الآن وكانت أنواع النشاط الجماعية تهز المشاعر فى أديرة الرجال والنساء ، وفى الجامعات ، والقرى ، ومراكز نقابات الحرف . وكانت الحياة بهجة مرحة فى أيام الآحاد والأعياد بنوع خاص ، وفى تلك الأيام كان الفلاحون ، والتجار ، وكبار الملاك يلبسون أحسن ما عندهم من الثياب ، ويطيّلون الصلاة أكثر من المعتاد ، ويشربون أكثر ما يستطيعون^(١٣٨) وكان الإنجليز إذا حل أول يوم من شهر مايو يقيمون عمود هذا اليوم ، ويضيئون المشاعل ، ويرقصون حولها ، وكأنهم يعيدون وهم نصف واعين ذكريات أعياد الخصب الوثنية . وكانت كثير من البلدان والقصور فى أيام عيد الميلاد تعين « سيداً لسوء الحكم » ينظم للجواهر ضروب التسلية والمناظر . وكان المهرجون يلبسون الأقنعة ، واللحى المستعارة ، والأثواب المضحكة ، ويسبرون فى الطرقات يمثلون مسرحيات ، أو ألعاباً ، أو ينشدون أغانى عيد الميلاد ؛ وكانت البيوت والكنائس تزدان بشرابة الراعى واللبلاب « وبكل ما هو أخضر فى هذا الفصل من السنة »^(١٣٩) . وكانت هناك

(•) المؤرخون الإخباريون هم الذين يكتفون فى تواريتهم بإيراد الحوادث وتواريتها
Chronicler مع وصف لما يشاهدونه فى بعض الأحيان أمثال الجبرق . (المترجم)

أعياد للفصول الزراعية ، وللانتمصارات القومية أو المحلية ، وللقديسين ، وللقابات الحرف ، وقلما كان يوجد فى تلك الأيام رجل لا يملأ معدته بالشراب . وكان لإنجلترا المرحه أسواق تنساب فيها الأموال وتجرى فيها الجمعة جرياناً سريعاً ولكنه ليس بالمجان ؛ وكانت الكنيسة فى القرن الثالث عشر تندد بهذه الاحتفالات ، ولكنها هى نفسها اتخذتها أعياداً لها فى القرن الخامس عشر (١٤٠) .

وقد كيفة بعض الأعياد حفلات الكنيسة فجعلتها جدية فى قالب هزلى ، صحابة تختلف من الفكاهة الساذجة إلى الهجاء الشائن المقلع ، وكانت مدينتا بوفيه Beauvais ، وسان Sans ، وغيرهما من البلدان الفرنسية تحتفل فى اليوم الرابع عشر من شهر يناير بعيد المحار fête a l'âne : فتركب فتاة جميلة حماراً ، ويخيل إلينا أنها تمثل بهذه الطريقة مريم أم المسيح أثناء فرارها إلى مصر ، ثم يقاد الحمار إلى كنيسة ، وينحن ويثنى ركبته اليمنى احتراماً وعبادة ، ويوضع بجانب المذبح ؛ ويستمع إلى قداس وترانيم يغنى فيها بمدبحة ، فإذا انتهت الصلاة نهق القس والمصلون ثلاث مرات تكريماً لهذا الحيوان الذى أنجبى أم المسيح من هيرودس وحمل عيسى إلى أورشليم (١٤١) . وكانت أكثر من عشر مدائن فى فرنسا تحتفل فى كل عام - ويكون ذلك عادة فى يوم عيد الختان - بعيد البلهاء fête de fous . وكان يسمح فى هذا اليوم للطبقة الدنيا من القساوسة أن تثار لخضوعها إلى كبار القسيسين والأساقفة طول العام بالسيطرة على الكنيسة والقيام بالشعائر الدينية ؛ وكانوا يلبسون فى ذلك اليوم ملابس النساء أو الملابس الكهنوتية مقلوبة ، ويختارون واحدا منهم ليكون أسقف البلهاء episcopus fatuorum ، ثم ينشدون أناشيد بدئية ، ويأكلون الوزم على المذبح ، ويلعبون الررد عند أسفله ، ويحرقون أحذية قديمة فى المبخرة ، ويلقون مواظ مريحة (١٤٢) . وكانت

كثير من البلدان في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر تختار من أهلها أسقف صبيان episcopus puerorum ، ليرأس زملاءه في تقليد فكه للحفلات الكهنوتية^(١٤٣) . وكان رجال الدين الخليون يسمون لهذه المهازل الشعبية ويتسامحون فيها ، وظلت الكنائس وقتاً طويلاً تغض النظر عنها ، ولكنها حين رأتها تنزع إلى الإسراف في التحقير والبذاءة اضطرت إلى مقاومتها حتى اختفت آخر الأمر في القرن السادس عشر(*) .

وكانت الكنيسة بوجه عام متساهلة لينة الجانب إزاء فكاهات عصر الإيمان الوقحة ، وذلك لعلمها أن الناس لا بد لهم أن يتحللوا بين الفينة والفينة من القواعد الأخلاقية ، وأن تفك القيود التي تعد في الأوقات العادية ضرورة للمجتمع المتمددين . ولقد يغضب بعض أشداء المتزمين أمثال القديس يوحنا كريسستوم St. John Chrysostom وينادون : « أتضحكون وقد صلب المسيح ؟ » ولكن « الفطائر ، والجمعة لم تنقطع ، والنبيذ ظل يجري ساخناً في الأفواه ، وكان القديس برنار يرتاب في المرح والجمال ، ولكن معظم رجال الدين كانوا في القرن الثالث عشر أكولين ، يستمتعون باللحم والشراب ، ولا يرون في هذا ما يؤنبهم عليه ضميرهم ، ولا يغضبون إذا سمعوا فكاهة حلوة أو رأوا ساقاً جميلة ؛ ذلك أن عصر الإيمان لم يكن عصر جد وكآبة ، بل كان عصراً مليئاً بالحيوية والمرح الشديد ، والعاطفة الرقيقة ، والسرور الساذج من نعم الأرض . ولقد كتب طالب مفكر على ظهر كتاب المفردات اللغوية أمنية له يتمناها لنا جميعاً :

(*) بيد أن أسقف غلمان لا يزال ينتخب في كل عام في أدلستون Addlestone من أعمال سري Surrey بإنجلترا .

وإني لأرغب أن تكون الأيام كلها إبريل ومايو ، وأن يجدد كل شهر جميع الفواكه مرة بعد مرة ، وأن تنبت في كل يوم أزهار الزنبق ، والمنثور ، والبنفسج ، والورد في كل مكان يطرقه الإنسان ، وأن تظل أشجار الغابات مورقة ، والمروج خضراء ، وأن ينال كل محبوبته ، وأن يحب كلاهما الآخر حباً صادقاً أكيداً يمتلئ به قلبه ، وأن يستمتع كل إنسان بما يحب من اللذة وأن يمتلئ القلب مرحاً وغبطة (١٤٥) .

الفصل التاسع

الأخلاق والدين

ترى هل تؤيد الصورة العامة لأوروبا في العصور الوسطى الاعتقاد بأن الدين يبعث على مكارم الأخلاق ؟ .

إلى الصورة التي تنطبع في أذهاننا بوجه عام لتوحى بأن الثغرة الفاصلة بين نظرية الخلق الطيب وحقيقته في العصور الوسطى أوسع منها في أى عصر آخر من عصور الحضارة . ذلك أن العالم المسيحى فى تلك العصور لم يكن يقل عنه فى عصرنا اللادينى الحاضر امتلاء بالشهوات الجنسية ، والعنف ، وإدمان الخمر ، والقسوة ، والفظاظة ، والدنس ، والشره ، والسطو ، والخيانة ، والتزوير . ويلوح أنه يفوق عصرنا الحاضر فى استعباد الأفراد ، ولكنه لم يكن يضارعه فى الاستعباد الاقتصادى للأقاليم المستعمرة أو الدول المغلوبة . وقد فاقنا فى إذلال النساء ، ولكنه لا يكاد يضارعنا فى عدم الاحتشام ، وفى الفسق ، والزنا ، وفى الحروب الضروس ، وفى كثرة من يقتلون فيها . وإذا وازنا بين مسيحية العصور الوسطى والإمبراطورية الرومانية من نيرفا إلى أورليوس ، حكمنا أن هذه المسيحية قد رجعت بالناس إلى الوراء من الناحية الأخلاقية ؛ غير أن كثيراً من أجزاء الإمبراطورية كانت فى عهد نيرفا قد استمتعت بقرون كثيرة من الحضارة ، على حين أن العصور الوسطى تمثل فى معظم مداها كفاحاً بين المبادئ الأخلاقية المسيحية والهمجية القوية التى كانت تحمل إلى حد كبير المبادئ الأخلاقية للدين لم تهتم هى بتلقى تعاليمه . ولقد كان يسع البرابرة أن يسموا بعض رذائلهم فضائل تستلزمها أحوال زمانهم ؛ فعنفهم تطرف فى الشجاعة ،

وشهوانيتهم زيادة في الصحة الحيوانية ، وخشونتهم وصراحتهم في الحديث ، وعدم حيائهم إذا تحدثوا عن الأشياء الفطرية ليست شراً من الخفر المصطنع الذى ينطوى عليه شبابتنا .

ولقد يكون من الأمور السهلة أن ندين مسيحية العصور الوسطى بالاعتماد على أقوال من كتبوا في الأخلاق من أبنائها . فلقد كان القديس فرانسس يندب سوء أحوال القرن الثالث عشر ويصفه بأنه « زمان الخبث والظلم اللذين لا حد لهما »^(١٤٦) ؛ وكان إنوسنت الثالث ، والقديس بوناقتورا ، وفنسنت البوفيزى ، ودانتى يرون أن أخلاق ذلك « القرن العجيب » هي الفظاظة التى لا أمل في إصلاحها ، وقال الأسقف جروسستى Grosseteste ، وهو من أكثر أحبار ذلك العصر حصافة ، للبابا « إن الكاثوليك في جملتهم أحلاف الشيطان »^(١٤٧) . وحكم روجر بيكن (١٢١٤ ؟ - ١٢٤٩) على العصر الذى يعيش فيه حكماً متطرفاً كعادته فقال :

لم يوجد قط ، ما يماثله في الجهل . . . لأن فيه من الرذائل ، ما لا مثيل له في أى عصر سابق . . . فيه الفساد الذى لا حد له . . . والعهر . . . والنهم . . . ومع هذا فإن لدينا التعميد ولدينا وحي المسيح . . . اللذين لا يستطيع الناس أن يؤمنوا بهما حق الإيمان أو يحلوهما حق الإجلال . . . وإلا لما سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا في هذا الفساد كله . . . ولهذا فإن كثيرين من العقلاء يعتقدون أن أوان المسيح الدجال قد آن ، وأن نهاية العالم قد اقتربت^(١٤٨) .

ولا حاجة إلى القول بأن هذه العبارات وأمثالها إنما هي مغالاة ضرورية يعتمد عليها المصلحون ، وأن في وسع الإنسان أن يجد أمثالها في كل عصر من العصور .

ويبدو أن أثر خوف الجحيم في رفع المستوى الخلقى كان أقل من أثر الرأى العام أو القانون في أيامنا هذه أو في ذلك الوقت ؛ ولكن جديراً بنا أن نذكر أن

المسيحية هي التي خلقت الرأى العام فى تلك الأيام ، وأنها هي التي أوجدت القانون إلى حد ما ؛ وأكبر الظن أنه لولا القانون الأخلاقى الذى خلقته المسيحية ، وما كان له من أثر ملطف ، لكانت الفوضى التي أوجدتها خمسة قرون من الغزو ، والحرب ، والتدمير والتخريب أشد مما كانت . ولقد يكون الباعث الذى حملنا على اختيار الأمثلة التي ذكرناها فى هذا الفصل هو التحيز غير المقصود ، فإن لم يكن فإن أحسن ما توصف به أنها جزئية غير وافية ؛ ذلك أن الإحصاءات معدومة وإن وجدت فهي غير موثوق بها ، ومن شأن التاريخ أن يسقط من حسابه على الدوام الرجل العادى . وما من شك فى أنه كان فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى آلاف من السذج الأخيار أمثال أم الأخ سلمبين Salimbene التي يصفها بأنها : « سيدة متواضعة تقية مخلصة ، تكثر من الصوم ، ويسرها أن توزع الصدقات على الفقراء » (١٤٩) ؛ ولكن كم مرة نعثر فى صفحات التاريخ على مثيلات هذه السيدة ؟

ولقد كانت للمسيحية فى الأخلاق آثار رجعية وآثار تقدمية معاً . فلقد كان من الطبيعى أن تضمحل الفضائل الذهنية فى عصر الإيمان ؛ وحلت الغيرة والحاسة ، والإعجاب بالصلاح والطهارة ، والتقوى غير المستندة إلى الضمير ، فى بعض الأحيان ، حلت هذه محل الذمة العقلية (النزاهة فى النظر إلى الحقائق) والبحث عن الحقيقة . وبدا للناس أن « الأكاذيب التقية » الممثلة فى تبديل النصوص ، وتزوير الوثائق آثار عرضية بسيطة يتجاوز عنها . وتأثرت الفضائل المدنية بقصر الاهتمام على الحياة الآخرة ، وتأثرت أكثر من هذا بانحلال الدولة ؛ ولكن الذى لا شك فيه أن حب الوطن ، مهما يكن حبا محليا ، لم ينعدم من قلوب الرجال والنساء الذين شادوا هذه الكنائس الكبرى الكثيرة ، وبعض الأبهاء العظيمة فى المدن . ولعل النفاق ، الذى هو من مستلزمات الحضارة ، قد زاد فى العصور الوسطى ، إذا نظرنا إليه فى ضوء نزعة القدماء الدينيوية الصريحة ،

أو الوحشية الجماعية السافرة التي نشاهدها في هذه الأيام .

على أن هذه الرذائل وغيرها تقابلها كثير من الفضائل . فلقد كافحت المسيحية ببسالة وإصرار سيل الحمجية القوي الجارف ؛ وبذلت جهوداً جبارة لتقليل الحروب والمنازعات ، والالتجاء إلى القتال والتحكيم الإلهي في المحاكمات ؛ وأطالت فترات الهدنة والسلام ؛ وسمت بعض السمو بعنف الإقطاع ومنازعاته فجعلتهما وفاء وفروسية ؛ وقاومت القتال في المجتلدات ، ومنعت استرقاق المسجونين ، وحرمت اتخاذ المسيحيين عبيداً ، وافتدت عدداً لا حصر له من الأسرى ، وعملت على تحرير أرقاء الأرض أكثر مما عملت على استخدامهم في أراضيها ، وغرست في النفوس احتراماً جديداً للحياة والأعمال البشرية ، وحرمت وأد الأطفال ، وقللت من الإجهاض ، وخففت أنواع العقاب التي كان يفرضها القانون الروماني وقانون القبائل المتبربرة ؛ ولم تقبل مطلقاً أن يكون مستوى الأخلاق عند النساء مختلفاً عنه عند الرجال ؛ ووسعت مجال الصدقات وأعمالها ، ووهبت الناس طمأنينة عقلية وسط ألغاز العالم الحيرة للعقول ، وإن كانت بعملها هذا قد ثبطت البحوث العلمية والفلسفية . وآخر ما نذكره لها أنها علمت الناس أن الوطنية إذا لم يقاومها ولاء أسمى منها تصبح أداة للشرة والنهم الجماعيين . وقد فرضت على جميع المدن والدول الصغرى الأوربية المتنافسة قانوناً أخلاقياً واحداً ، وحافظت عليه ؛ واستطاعت أوربا بهديها ، وبشيء من التضحية التي لا بد منها ببعض حريتها ، أن تستمتع مدى قرن من الزمان بالمبادئ الأخلاقية الدوائية التي تتمناها وتكافح من أجلها في هذه الأيام — نغني بها أن يكون لها قانون يخرج الدول من قانون الغابة ، ويوفر على الناس جهودهم لينفقوها في معارك السلام وانتصاراته .